٩ عالم الفلسفة والعرفان

الرؤية الكونية من المادية الى العرفان

شادي فقيه

دار العلم

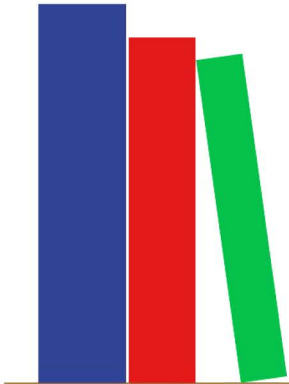

مكتبة
مؤمن قريش

لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه.
(الإمام الصادق (ع)

moamenquraish.blogspot.com

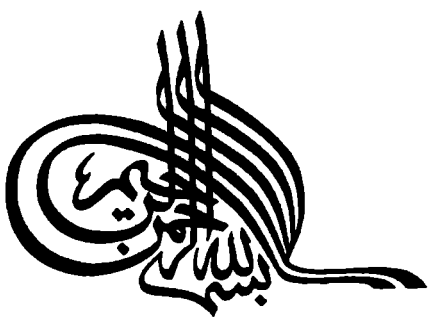
بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب: الرؤية الكونية من المادية إلى العرفان

المؤلف: شادي علي فقيه

الناشر: دار العلم للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

طريق المطار - سنتر زعرور - ط٤

تلفاكس: ٠١/٤٥٠٥٨٠ - خليوي: ٠٣/٨٥٢٥٧١

إخراج: مركز دار العلم للدراسات

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

بيروت - ٢٠٠٢

الرؤية الكونية

من المادية إلى العرفان

شادي علي فقيه

بيروت - ٢٠٠٢

مقدمة الناشر

في عالم يطلب يوماً بعد يوم الحقيقة والمعرفة ويجهد بشتى الطرق ومختلف أنواع التجارب للوصول إلى الطمأنينة والسعادة، ثمة أشخاص باحثين أيضاً عنها، ولكن بطريق آخر ووسيلة أخرى.

إنه العلم... لكن أي علم؟ هذا هو الذي تحتاجه البشرية اليوم، لا شك أنه العلم الذي يوصله إلى هدفه، وأي وسيلة أفضل من علم معرفة الحقيقة...

إن سلسلة عالم الفلسفة والعرفان تلقي الضوء على مجموعة من المواضيع والمباحث في عالم الفلسفة والعرفان، وهي محاولة لإعادة هذه الروح على أن تثمر ما هو جديد من العلوم القديمة أو الحديثة وقد اختارت إدارة مركز دار العلم للدراسات والأبحاث نخبة من المفكرين والباحثين لتعرض أفكارهم وأبحاثهم لظمئ المعرفة والعلم.

وهذه التجربة هي الخطوات الأولى لإحياء هذه العلوم في رحلة الوصول إلى الحقيقة.

الناشر

إهداء...

إلى أبي الحقيقي

إلى النور الأول

إلى قائد رحلة الإطلاق

هذا ما أتت به النملة إلى سليمان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بسم الله خير الأسماء، بسم الله رب الأرض والسماء، اللهم صل على نورك وصراطك وحبلك الممدود من الأرض إلى السماء ومنجي العباد في الليلة الظلماء بدون عنقاء ولا عماء وعلى رهطه أهل النقاء والكرم والعطاء مرآة عالم النفوس والنور والصفاء.

عندما درست هذا الموضوع لأول مرة ورسخ في ذهني بطريقة عجيبة ورغم أنّ مَنْ كتب حول هذا الموضوع قلّة قليلة، لكن ما وصلنا منه كان ذا معانٍ عميقة ذات أبعاد شتى، وأرى أن هذا الموضوع هو من أهم المواضيع التي يجب البحث فيها، لأنها مفتاح المعرفة والتحليل لمحيط الإنسان.

أذكر أنني أعطيت مرة درساً حول هذا الموضوع وبعد سنتين فاجأني أحد الحاضرين ببعض الجمل التي رسخت في ذهنه ولم ينسها رغم مرور كل هذا الوقت، مما زاد في قناعتي بأن هذا

الموضوع ذو درجة عالية من الأهمية.

ورغم أن هذا الكتاب صغير الحجم لكن أقسامه كثيرة وقد أخذ مني مجهوداً كبيراً في الكتابة، وقد يجد البعض أن فيه بعض المصطلحات الصعبة التي تحتاج إلى مقدمات ولما للبحث من جوانب فلسفية، غير أن إعادة قراءته مرة ومرتين كفيلة بتقريبه من الفكرة.

كما أن موضوع الرؤية الكونية شامل ومتشعب ويمكن التوسع فيه أيضاً لمعرفة الدواعي الكامنة وراء كل رؤية أو التوسع في نقدها على حدة بشكل أوسع وإن كنا أغفلنا الكثير من النقاط فذلك كان بسبب ضيق الوقت وكثرة المشاغل وأسأل الله أن يوفقني في أن أفي هذا البحث مستقبلاً.

تبقى لدي نقطة أحب أن أشير إليها أن لب هذا الموضوع يكمن في الخمسة عشر معياراً للتصور الكوني ولكن هذه المعايير يمكن أن تكون شروطاً عامة وخاصة لكل طالب حقيقة وعليه أن يضع هذه المعايير في أي معتقد أو فكر أو فلسفة أو طريقة حياة ليرى مدى انسجامها مع طرحه أو الطرح الذي يتبناه. ففي هذا الزمان تتصارع المعتقدات والأفكار والآراء بشكل لم تعهده البشرية، فاليوم هو عصر التكنولوجيا والتطور وبدأ العالم يأخذ شكلاً

موحداً في جميع العلوم حتى بات استخدام هذه العلوم في شتى الميادين الاقتصادية الإعلامية والثقافية مسألة على جانب كبير من الأهمية. وأصبح المحرك لكل هذه الوسائل والعلوم هو المعتقد والفكرة والتصور الكامن وراءها فلا بد للإنسان أن يدرك ما للتصور الكوني من أهمية في تحريك الشعوب والعلوم والوسائل ضمن هذا الاتجاه.

وقد بات الإسلام اليوم مستهدفاً من جميع الجهات حتى من المسلمين أنفسهم وهذا يعود لعدم معرفتهم بالدين وعدم وجود النموذج الحقيقي للإسلام فالشائعات والتهم تلقى على الإسلام منذ ألف وأربعمائة سنة ولكنها اشتدت في هذا العصر والمسلمون لا يحركون ساكناً، والأصعب أن بعضهم يقف وراء هذه التهم والبعض يصدقها والبعض غير مكترث لها والبعض يحاول أن يدافع لكن بأسلوب خاطئ تماماً. لهذا إذا لم ننهض وندافع عن حرم الإسلام فإن نصيبنا من الله سيكون الاستبدال (يستبدل قوماً غيركم) (اللهم لا تستبدل بي غيري) ويطول الشقاء والمعاناة على البشرية ولا تجد حلاً إلا التخبط في الشرق أو الغرب بحثاً عن الحلول التي أنزلها الله لهم منذ أربعة عشر قرناً، وما يحتاجه في عصرنا هذا الإسلام الآن هو النموذج الذي يبرهن للعالم أن التطور والجمال والعلم والمعرفة والفن والكمال هو في الإسلام.

كيف يمكن أن أتحدث عن الله، الطهارة المطلقة وأن أكون قذراً (لا سمح الله) أو أقول بأن الله جميل وأنا أمثل ذروة البشاعة والقبح وأتحدث عن العلم والمعرفة وأنا في إفلاس منها، أليس هذا هجوماً على الإسلام أقوى من هجوم الأعداء.

فهم بعض الناس بأن الإسلام هو أن تطلق لحيتك شبراً فإن لم تفعل فقد خرجت عن سنة النبي(ص) وعن الإسلام، وأن الله سيعذبك عذاباً شديداً إذا لم يكن الإزار قصيراً ما بين الركبة والقدم وهذه هي الكارثة والكفر الأعظم. هل هذا هو الإسلام الذي جاءت الأنبياء عبر التاريخ تبشر به وتدعو إليه. يوجد الآن ملايين من المسلمين السود في أمريكا.. يعتقدون بأن النبي محمد(ص) كان أسوداً وأن الإسلام حكر على السود فقط ولا يمكن للأبيض أو الأصفر اعتناق الإسلام وطبعاً هذه الفئة مرضي عنها من قبل السلطات الأميركية وتخصها بالدعم والتأييد فما يريده أعداء الإسلام هو البعد عن الإسلام، أما في أوروبا فما يزال يعتقد الكثيرين بأن المسلمين هم عبدة الأوثان، وأن دينهم يأمرهم بركوب الجمال والعيش في الصحراء. طبعاً هذا شيء يسير من التهم، وهذا عدا عن الإعلام المشوّه للإسلام. هذا ومكتبات الإسلام زاخرة بآلاف الكتب والمعارف ولا تجد ديناً يحث الإنسان على العلم والتطور أكثر من الإسلام، يقول النبي(ص):

«اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد»

والإسلام يملك الحلول والأجوبة عن جميع الشبهات المطروحة أو التي تخطر على قلوب وعقول البشر، فعلى جميع المؤمنين بهذا الدين أن يبرزوا ما خفي عن العالمين وأن يروهم الجانب الإسلامي الحقيقي والوجه الكمالي للبشرية ومن وجد فيه العجز عن القيام بهذا فليتوسل وليدعو الله أن يجعل فيه الخير الكثير لإحياء أمره.

إن الحديث عن الرؤية الكونية هو الحديث عن السلام والعدل العالميين، لأن جميع الخلافات والحروب ناتجة عن رؤية خاصة لهذا الكون فإذا ما وضع معيار يتفق عليه الجميع، أمكن تجنب مثل هذه النزاعات.

إن هدف هذا البحث هو فهم الكون وحركته وأقسامه وسلبياته وإيجابياته وكماله وإطلاقه.

وقد اتبع العبد الحقير في هذا البحث الأسلوب الطولي من الأدنى إلى الأعلى، ضمن منهج عقلي استدلالي يناقش المفاهيم الكلية للرؤى المختلفة.

أكتب هذه الكلمات وأنا على بعد ثلاثة أمتار من ضريح الإمام الثامن من أئمة أهل البيت(ع) الإمام علي بن موسى الرضا(ع)

في حرمه الشريف في مشهد مستلهماً ببركات وجوده المقدس في هذه البقعة المباركة، هذه الكلمات من هذا الكتاب وأهدي عملي المتواضع هذا إلى مولاي الإمام الرضا(ع) سائلاً المولى أن يوفقني لإنجازه وأن يتقبله وأن يجعلني من المتقين كما ألتمس الدعاء من جميع المؤمنين والحمد لله.

سحر ليلة الجمعة من شهر .... سنة ١٤١٩هـ

مشهد ١٩٩٨ م.

حرم الإمام علي بن موسى الرضا(ع)

ش. فقيه

الرؤيــة الكونيــة

تعريف الرؤية الكونية:

قبل الشروع في البحث والخوض في مفهوم الرؤية الكونية، لا بد لنا من تعريف العنوان، وخاصة أن هذا المفهوم قد عُبّر عنه بألفاظ متعددة، منها: النظرة الشاملة للعالم، المفهوم العام عن العالم، المفهوم الفلسفي للعالم، التفسير الشامل للعالم، التصور الكلي للوجود، النظرة إلى العالم، النظرة إلى الكون، المفهوم الكلي للعالم أو للوجود وهو ما يعبر عنه بالأيدلوجية[١].

الرؤية الكونية هي: التفسير أو النظر إلى العالم، أو الكون، أو الوجود:

إنها عبارة عن مجموعة من المعتقدات والنظريات الكونية المتناسقة حول الكون والإنسان (سلوكه وأفعاله) بل وحول الوجود بصورة عامة[٢].

لذلك فجميع المدارس الفكرية والفلسفة الاجتماعية والأديان

---

(١) يزدي، محمد تقي المصباح: دروس في العقيدة الإسلامية، ج١، بيروت: دار الحق ١٩٩٢ - ص٢٢.

(٢) يزدي، محمد تقي المصباح: المصدر نفسه، ص٢٢.

والمذاهب، تستند إلى نظرة أو تفسير أو تصور[١] أو فكرة ما عن الوجود وأقسامه وكل المفاهيم المنتزعة منه.

أي يمكن اعتبار أن البنية العقائدية لكل دين أو مذهب، أو غيرها من الأحزاب أو الانقسامات على مختلف توجهاتها، هي رؤيتها وتفسيرها الشامل (الإيديولوجيا) حتى نظام أحكامها العملية الكلية التي تشمل الأصول والفروع.

(١) مطهري مرتضى: المفهوم التوحيدي للعالم، بيروت: دار التيار الجديد، ١٩٨٥، ص ٥ .

أهمية البحث :

تكمن أهمية البحث في أنه يعطي التصور العام للمصادر التي ينطلق منها التفسير والمعرفة والرؤية (وقد يخطئ البعض بين الرؤية الكونية والمصدر الذي يبنى عليه التصور أو الرؤية الكونية).

ومن المعلوم أن هناك أنماطاً مختلفة من مصادر المعرفة التي ينطلق منها التصور أو الأيدلوجية: (كالعلم، المادة، الدين، الفلسفة، وغيرها[١] .....).

وعندما نفهم تلك الأسس للتصور أو للرؤية ومعرفة سلبياتها وإيجابياتها يمكن لكل فرد التوسع في الأسس التي يتبناها لكي توصله إلى هدفه ومنشوده.

---

(١) مطهري، مرتضى: المفهوم التوحيدي للعالم، بيروت: دار التيار الجديد، ١٩٨٥، ص ٥.

هدف البحث :

الرؤية الكونية: هي التي تعطي للإنسان التصور الكامل عن الوجود بغض النظر عن النتائج والمقدمات التي يمكن أن تكون خاطئة ويمكن أن تكون صحيحة، لذلك فهدف البحث هو:

١) دراسة موجزة عن أنواع الرؤى الكونية.

٢) معرفة سلبياتها وإيجابياتها المرتكزة على مصدر أو أساس تنطلق منه.

٣) التماس الحقيقة في المعتقد الفكري والمسلكي.

لماذا الرؤية الكونية؟

هناك الدافع الفطري والغريزي في الإنسان لمعرفة الحقائق والاطلاع على الواقعيات التي تظهر لكل إنسان منذ بداية طفولته وحتى نهاية عمره، هذا الدافع النظري لمعرفة الحقيقة يعبّر عنه بـ (حب الاستطلاع) وهو الذي يدفع الإنسان إلى التفكير والتأمل والبحث والسعي.

فلدى الإنسان حاجات أصيلة منها احتياج مادي (غريزي) ومنها فكري ومنها عاطفي ولكل تلك الحاجات مصاديق خارجية وإلا لكان وجودها عبثياً، مثال: الاحتياج المادي (الجوع - العطش - الرغبة الجنسية) والاحتياج الفكري يكون بالمعرفة والحقيقة.

(الإنسان منذ الطفولة وحتى الممات تتكون لديه أسئلة كثيرة ويسعى للإجابة عليها بشتّى أنواع الأجوبة ملتمساً الحقيقة. يقول الإمام علي(ع): «**رحم الله امرءاً عرف من أين، في أين، إلى أين**»[1]. مجموع تلك الأسئلة هو التفسير الشامل للوجود أو ما

(١) دروس جامعية، شرح مصباح الهداية، (مادة العرفان)، د. محمد خاقاني.

يُعَبّر عنه بالرؤية الكونية.

إضافة إلى ذلك فإنّ كل الأفعال في العالم تنطلق من نظرية أو معتقد ما، فالسياسات والمعاملات ما هي إلا ترجمة فعلية لما تختزنه أدمغة صانعيه وفاعليه.

من هنا نجد أنّه عند معرفة أو فهم الرؤية الكونية يصبح من اليسير فهم الحركات والسياسات والأفعال والاتجاهات الفكرية المختلفة في العالم.

مدخل إلى البحث:

الرؤية أو التصور تعني فهم العالم وهي غير الإحساس به فالفهم والمعرفة يرتبط بقوة تعقّل الإنسان[١]. كما أن الاستعداد الفعلي أعلى مراتب استعداد الإنسان وهو القادر على الربط بين مراتب الوجود وإنارة الطريق أمام جميع قوى النفس (السالكة في الوجود).

قد يتلقى مجموعة من الأفراد ظاهرة معينة عن طريق الحواس لكن عدداً منهم فقط يتجه إلى تفسيرها بتفسير واحد أو تفسيرات متنوّعة.

(١) مطهري، مرتضى: المفهوم التوحيدي للعالم، بيروت - دار التيار الجديد ١٩٨٥، ص ٦.

المصادر والأسس

كما ذكرنا فإنّ الرّؤية (التصور) أو النظرة الكونية تختلف باختلاف المصدر الّذي تنطلق منه هذه الرؤية. وبعد إحصاء للأسس والمصادر التي تعتمد عليها جميع الأديان والمذاهب والمدارس الفكرية والفلسفية نصل إلى أن هناك العديد من الرؤى الكونية، تعتمد على ثمانية مصادر ومنطلقات تنطلق منها وهي: (الوهم - الصدفة - الإنسان - المادة - العلم الفلسفة - الدين والعرفان).

إذاً فالرّؤية الكونية تبنى على أساس إحدى هذه المنطلقات، ويكون النظام العقائدي لأي (إيديولوجيا) قائم على هذا الأصل، فيولد عندنا العديد من الرؤى الكونية.

أنواع الرؤى الكونية:

الرّؤية الكونيّة العبثيّة:

أ - الرؤية الكونية العبثيّة الوهمية.

ب - الرؤية الكونية العبثيّة الصدفية.

ج - الرؤية الكونية العبثيّة البشرية.

الرؤية الكونية المادية:

أ - الرؤية الكونية المادية الأزلية.

ب - الرؤية الكونية المادية الإيجادية.

ج - الرؤية الكونية المادية اللامتناهية.

الرؤية الكونية العلمية:

أ - الرؤية الكونيّة العلميّة السلبية

ب - الرؤية الكونيّة العلميّة الإيجابية.

الرؤية الكونية الفلسفية:

أ - الرؤية الكونيّة الفلسفية البديهية الاستدلالية.

ب - الرؤية الكونيّة الفلسفية النسبية.

الرؤية الكونية الدينية:

أ - الرؤية الكونية الدينية السليمة.

ب - الرؤية الكونية الدينية غير السليمة.

الرؤية الكونية العرفانيّة[1]:

أ - الرؤية الكونية العرفانيّة الشهودية الحقيقة.

ب - الرؤية الكونية العرفانيّة الشهودية المنحرفة.

---

(١) ويعتقد البعض (بأربع أقسام للرؤية الكونية)، وهي الرؤية الكونية العلمية، الفلسفية، الدينية، العرفانية، كأمثال الشهيد مطهري في المفهوم التوحيدي، والشيخ مصباح اليزدي: دروس في العقيدة.

معيار لتقييم الرؤية الكونية:

حتى نصل إلى رؤية كونية سليمة أو تبني أي معتقد ما، يجب وضع معايير توصلنا إلى الحقيقة، بدون التحيز والعصبية والعاطفة وغيرها من العوائق التي تعيق الإنسان، من بناء أفكار سليمة حول نفسه والكون المحيط به وعن طبيعة هدفه ضمن هذا الكون وهذا المعيار الموافق للعقل والفطرة هو الذي يجب أن يعتمد كميزان وآلة تقويم لجميع الرؤى.

١ - أن يكون الطرح بديهيّاً أو قابلاً للاستدلال (عقل ومنطق) وأن تكون لديه أرضية عقلية لتقبله.

٢ - أن يكون الطرح واضحاً ويزيل الغموض والإبهام.

٣ - أن يكون له بعد شمولي أي يشمل جميع أبعاد الإنسان والحياة والكون ولا يكون محدوداً بحدود جانب من الحياة أو الإنسان.

٤ - أن يكون موافقاً للطبيعة الفطرية والحاجات الأصيلة

للإنسان وموافقاً للنظام الكوني.

٥ - أن يكون له بعدٌ غائيّ، أي: إنه غير خالٍ من هدف في الطرح، وأن يمنح الحياة معنًى ويزيل فكرة عبثية الحياة.

٦ - أن يكون له بعدٌ أصيلٌ ينطلق منه أي معرفة (الأين) المبدأ الأول ومعرفة العلاقة الأصيلة مع هذا المبدأ (أي الارتباط به).

٧ - أن يكون له بعدٌ انسجاميٌّ بين الفروع والأصول.

٨ - أن يكون له بعدٌ عمليٌّ و لا يكتفي بالتنظير والنصيحة ومن جهة أخرى، أن يملك حلولاً ومنهجاً عملياً يوصل إلى الأفكار التي يطرحها[1].

٩ - أن يكون له بعدٌ قيّمٌ وطابعٌ مقدسٌ في الفكر والمسلك لبعث الاستعداد في نفوس معتقديه للتضحية وتجاوز الذات وضمانة التنفيذ لأفكار ومعتقدات الدين أو المدرسة الفكرية لتلك الرؤية.

---

(١) يقال أن ابن سينا قال: «إن بيني وبين أرسطو ١٣٠٠ عاماً، ولم يقع في يدي منها كتاب مقنع، وكل من أتى كان يكتفي بنصح الناس وحسب، ويقول لهم: إن طريق الفكر صعب، فكونوا على حذرٍ وفكروا بدقة كمثل الذي يمظ الناس في صحراء مليئة بالشوك أن يتقوا الشوك في مسيرهم دون أن يضع الحل بين أيديهم. ويضيف ابن سينا: جاء أرسطو ووضع الأسس التي يعتمدها من يرد حياض الفكر فدله على القضية الصغرى والكبرى أ = ب، وب = ج، إذن أ = ج. هذا أساس فسر عليه لتصل إلى غايتك. ثم يقول ابن سينا: إني لأنظر لأرسطو بعين الاحترام لأنه أوضح الطريق ولم يكتفِ بالنصيحة.

١٠ - أن يكون الطرح قوياً متماسكاً ثابتاً غير متزلزل، متأقلماً مع الزمان والمكان.

١١ - أن يكون الطرح كلياً، بحيث يشمل الجزئيات.

١٢ - أن يكون الطرح جذّاباً، بحيث يمنح الطاقة، والحرارة، والشوق، والارتفاع.

١٣ - أن يكون الطرح عادلاً، بحيث يعطي كل ذي حقٍ حقه.

١٤ - أن يكون غنياً، بحيث يعطي المنفعة والقدرة والإرادة.

- أن يكون الطرح صادقاً ويعطي الحرية[1].

(١) ذكر الشهيد مطهري ٦ أو٧ معايير للتصور في كتابه: «المفهوم التوحيدي للعالم».

الباب الأول

الفصل الأول

الرؤية الكونية العبثية

الفصل الثاني

الرؤية الكونية المادية

الفصل الثالث

الرؤية الكونية العلمية

الفصل الرابع

الرؤية الكونية الفلسفية العقلية

الفصل الأول

الرؤية الكونية العبثية:

١ - الرؤية الكونية الوهمية

٢ - الرؤية الكونية الصدفية

٣ - الرؤية الكونية البشرية

٤ - عدم مساواة الإنسان للوجود

١ ـ الرؤية الكونية الوهمية

(كل ما في الكون وهم أو خيال[١]) + نحن لا نلزم أنفسنا بشيء.

أتباع هذه الرؤية هم السفسطائيّون (قديماً في اليونان) وهم جماعة سمّت نفسها «سوفيست»، أي: العالم حيث اعتبرت المغالطة أساساً في الاستدلال[٢] وبعض المفكرين الغربيين في بريطانيا وأمريكا أمثال سير جيمس جنز الذي يقول: إن هذا الكون ليس له وجود فعلي وانه مجرد صورة في أذهاننا، فإنّنا لا نتمكن من تصور العالم بصورة مادية عن طريق المفاهيم الفيزيائية الجديدة، حيث لا سبيل للتعرف على الكون إلا عن طريق المفهوم وهو صورة غير مادية[٣].

طبعاً هذه الأفكار انقرضت ولا يقول بها أحد الآن لغرابتها

---

(١) الصادقي، محمد: حوار بين الإلهيين والماديين، بيروت: دار المرتضى، ط الثانية. ١٩٨٧ ص ١٣.

(٢) مطهري، مرتضى: الفلسفة، بيروت: دار التيار الجديد، ط ١، ١٩٩٣، ص ١٢.

(٣) الصادقي، محمد: المصدر السابق، ص ١٣.

وتناقضها وبعدها عن الواقع.

قبل إيضاح هذا الإشكال الوهمي يجب معرفة من أين انطلقت هذه الفكرة.

انطلقت هذه الفكرة مع السفسطائيين، وهذه الفرقة تنشد الإقناع أكثر مما تقف وراء المعتقد أو الفكرة، فمن المعروف أنه عندما كان ينشب خلاف في اليونان القديمة كان الأكثر إقناعاً هو الذي يحصل على الحكم في المنازعة إن كان محقاً أم لا. أي أن المسألة تتوقف على براعته في الخطابة والإلقاء والتعبير والإقناع. وتروى قصة عن غراب وهو أحد متعلمي الخطابة والإقناع في زمانه، وكان من جملة قاصديه فتى من اليونان يقال له تيناس، طلب منه تعلّم فنّ الإقناع مقابل مبلغ من المال، وبعدما انتهى من التعلم وجاء وقت المطالبة بالمال، قال له تيناس: «يا معلم إنني أناظرك الآن بالأجرة، فإنّ أقنعتك بأني لا أدفعها إليك، فلن أدفعها، وإن لم أستطع إقناعك، فلستُ أعطيك شيئاً لأني لم أتعلّم منك الإقناع». فأجابه المعلم قائلاً: « وأنا أيضاً فإنّ أقنعتك بأنه يجب لي حقٌ منك أخذته أخذ من أقنع، وإن لم أقنعك فيجب أيضاً أخذه منك، إذ أكون قد أنشأت تلميذاً يغلب معلّمه». فقال من حضر: «بيض رديء لغراب رديء»[1].

---

(١) البدوي، ابراهيم: فن الخطابة، بيروت: دار القول الثابت، ط ١، ١٩٩٤، ص ٢٨ - ٢٩ .

انطلقت هذه الفكرة مع السفسطائيين، الذين كان هدفهم إقناع الخصم والجدال معه لا أكثر، محقين في الفكرة أم لا. كان مجرد التفوق على الخصم ولو كان الكلام مليئاً بالتناقض والأفكار التي تقف أمام البديهيات. أما في العصر الحديث فقد تبنت هذه الفكرة تيارات الفلسفة المادية والمعتقدات الدينية المتسلطة والمحاربة للفكر.

لكن ردود الفعل هذه أوقعتهم في تناقض لا مفر منه.

١- مقولة أننا لا نلتزم بشيء تجعلنا نسأل هل هذا إلزام أم لا، فإذا كان إلزاماً فهذا تناقض صريح، لأنه يستوجب أن نلزم أنفسنا بعدم الالتزام وهذا إلزام.

أما إذا لم نكن نلزم أنفسنا فهذا نقيض الإلزام.

٢- مقولة أن الكون والوجود هو وهم: هل لهذا الرأي حقيقة ؟ أم هو وهم أيضاً[١]؟ فإنّ كان وهماً لا حقيقة له فلا حقيقة للحكم على الوجود وإنما الوهم هو الحكم وليس الموضوع هذا أو لا. ثانياً إن الحكم يفيد التسلسل.

---

(١) الصادقي، محمد: حوار بين الإلهيين والماديين، بيروت: دار المرتضى، ط الثانية، ١٩٨٧، ص ١٢.

٣- الإقرار بالشيء يعني ثبوته (وهو خلاف مقولتهم).

٤- الحكم = وهم الكون = وهم = الحكم = الكون.

أما إذا كان حقيقة فهذا يتنافى وحكمكم بوهمية الكون[١] لأن هذه الحقيقة إما أن يكون لها وجود وإما لا، فإذا كان لها وجود فهو خلاف القول، وإذا لم تكن موجودة فهو خلاف حكمهم، إذاً نتيجة هذا الحكم تصديقية وتكوينية، وليس هذا إلا تصديق لحقيقة الكون (من نفس الحكم).

٥- ليس هناك كائن فيزيائي / هو غير ليس هناك كون / عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود.

٦- إن إشكالهم لا يتعدى الشعور والإحساس. فلو كان هناك حقيقة كيف يجب أن تكون ذاتها وصفاتها وآثارها التي لا تتوصل لها. وكيف كنا نتعرف عليها، هل كانت ستنبع من ذواتنا حتى تكون لها حقيقة[٢].

٧ - هل الذات التي تحكم وتتوهم؟ هل هي موجودة أم لا؟، إن مجرد المناقشة أو الحوار والتحدث عن الوجود هو إقرار به من حيث الآليات نفسها.

(١) الصادقي، محمد: المصدر نفسه، ص ١٣.

(٢) الصادقي، محمد: المصدر نفسه، ص ١٤.

٨ - لا ميز في العدم (لو أن الوجود يعدم كل حقيقة فاختلاف الفكرة والمفهوم هو من خصائص الوجود. إن اختلاف الأشياء وصورها وخواصها وكل هذه الاختلافات من أين تنشأ فلا ميّز في العدم، إنما الميّز في الموجودات[١].

(١) الصادقي، محمد: المصدر نفسه، ص ١٥.

٢ـ الرؤية الكونية (الصدفية):

منطلق هذه الرؤية هو الصدفة وهو نكران العلة الأولى ﴿أم خلقوا من غير شيء﴾[١] وأصحاب هذه الرؤية يعتقدون بأن الصدفة تعمل عمل الفاعل ذي العلم والاختيار.

طبعاً لا يقول أحد من العقلاء بقانون الصدفة لاستحالته عقلاً فهذا القانون مرفوض لعدة أسباب منها:

إن كافة العلوم تحيل الصدفة، لأنها تنسف وتنكر القوانين العلمية. وكما أنها أيضاً تنسف التنبؤات العلمية أي بمعنى آخر، إذا غلى الماء بدرجة حرارة معينة لا يصبح بخاراً، والورق إذا احترق لا يصبح رماداً، أو إذا اقتربنا من النار لا نحترق، كما أنه من الأسباب البديهية لرفض هذا المبدأ إنكار قانون العلية القائم عليه النظام بأشمله فلا نرى جزءاً أو خلية أو ذرة في الوجود، إلا ونظام أو قانون العلية والسببية يعمل فيه، فلا يمكن تخيل جريمة

---

(١) سورة: الطور، الآية: ٣٥.

تحصل بدون مجرم أو كتاب بدون كاتب.

مثال بسيط على الصدفة: من المستهجن أن يدّعي أحد أن الذي اخترع الساعة المعقدة الصنع هو طفل صغير لا يبلغ من العمر ثلاث سنوات، ماذا لو قال لك بأن هذا الطفل مجنون، طبعاً من غير الطبيعي هذا الأمر، وهو غير معقول فماذا لو قيل لك بأن الساعة هي التي صنعت نفسها صدفة؟ إنّ هذا أغرب من الحالتين.

هل أن الصدفة أمر وجودي أو عدمي؟ إذا كانت عدمية يلزم تكون العالم بدون علة وهو أمر مرفوض، وأما إذا كانت الصدفة وجودية، فإنّنا نبحث عن علّة الصّدفة الموجودة، إذا كانت حادثة فيلزمها علّة، وإذا كانت أزلية فخلاف الصدفة لا من شيء (عدم نسبي) ومن لا شيء (عدم مطلق) كان قبله الإرادة.

كما أن الصدفة تفيد العبث والتخبط والكون عكس ذلك، إنما النظام والقوانين والأسباب هي السائدة وهي التي تحكم هذا النظام.

فأي عملية تحوّل لا بد أن تتم طبقاً لقوانين محددة. لن نخوض في النظام الموجود في الكون كبعد الشمس عن القمر، وبعدهما عن الأرض، والحركة التي تنتج والزمان الذي يترتب وقانون القوة الدافعة والجاذبية، ونسب العناصر الكيميائية وقشرة الأرض

المهيّأة لعيش الإنسان وما غيرها من الأمثلة، ولكني اخترتُ مثالاً أدهشني حقاً وهو من التعقيدات الطريفة في الكون. وهو العلاقة الموجودة بين فراشة اليوكا ونبات ايوكا - وهو أحد النباتات الزنبقية - فزهرة اليوكا تتدلى إلى أسفل ويكون عضو التأنيث فيها أكثر انخفاضاً عن عضو التذكير.

أما الميسم وهو الجزء من الزهرة الذي يتلقى حبوب اللقاح فإنّه يكون على شكل الكأس وهو موضوع بطريقة يستحيل معها أن تسقط اللقاح، ولا بد أن تنتقل هذه الحبوب بواسطة فراشة اليوكا التي تبدأ عملها بعد مغيب الشمس بقليل، فتجمع حبوب اللقاح من الأزهار التي تزورها وتحفظها في فمها الذي يبنى بطريقة خاصة لأداء هذا العمل، ثم تطير الفراشة إلى نبات آخر من النوع نفسه وتثقب مبيضها بجهاز خاص في مؤخر جسمها ينتهي بطرف مدبب يشبه الإبرة وينزل منه البيض وتضع الفراشة بيضة أو أكثر ثم تزحف إلى أسفل الزهرة حتى تصل إلى الميسم وهناك تترك ما جمعته من حبوب اللقاح على صورة كرة فوق ميسم الزهرة، وينتج عدداً كبيراً من الحبوب، يستخدم بعضها طعاماً لأولاد الفراشة وينضج بعضها لكي يواصل دوره في الحياة[1] ذلك صنع اللطيف الخبير.

---

(١) الصادقي، محمد: المصدر السابق، ص ١٥٢ - ١٥٣.

٣- الرؤية الكونية البشـرية:

هذه الرؤية تفترض أنّ الإنسان أصل الوجود وعلى ضوء هذا يتمّ تفسير الكون والكائنات الأخرى رغم أن الآية ﴿أم خلقوا من غير شيءٍ أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون﴾[١] هي من نوع الاستقراء إلا أنها تفيد نوعاً من التصور لدى الكثير من الناس فمن لديه الاستقلالية والخالقية يمكنه أن يخلق إن شاء في الزمان والمكان والكيفية والكمية فمن يستطيع أن يخلق النفس يستطيع أن يخلق ما سواها أو ما دونها.

ومن جهة أخرى يعتبر أنصار هذه الفكرة أنّ الإنسان هو أساس تفسير الوجود ومن خلاله نفهم كل شي فإنّه لا يمكنك فهم أي شي من الوجود إلا من خلال نفسك لأن الإدراك والشعور والتخيل والحس هو من شأن الإنسان فيكون هو الركيزة ومن هنا أصل الوجود.

﴿أنا ربكم الأعلى ..﴾[٢] الأنا هنا تأتي بنحو الإطلاق وربكم

(١) سورة: الطور، الآية: ٣٥ ـ ٣٦.
(٢) سورة: النازعات، الآية: ٢٤.

أي المدبر والمعطي للأوامر هو الأنا لكن لمن ؟ الاسم الضمير هنا هو المأمور فنفهم أن هناك إما اثنينية أو حقيقة واحدة لمرتبتين داخل النفس بين آمر ومأمور. العليا تفيد المنشأ الأساس والسلطة العليا التي من خلالها تتلقى النفس جميع الأوامر والتعليمات. للوهلة الأولى قد يعتقد البعض أن معتنقي هذه الفكرة هم أشخاص قليلون - والواقع هو غير ذلك - إذ أن معتقدي هذه الفكرة هم الأكثر والأعم بين كل معتنقي تلك الرؤى، لكن في مستوى الباطن والشرح في هذا الأمر سيأتي في الرؤية الكونية العرفانيّة بشكل أوسع، حيث نعرف منشأ هذه الأفكار وغاياتها.

أما ما نعلق عليه هو أن التفريق بين النفس والوجود واقع لعروض الإنسان على الوجود أولاً وثانياً عدم أزليته ولو على مستوى الشعور.

عدم مساواة الإنسان للوجود:

الوجود هو مطلق، والإنسان مقيّد فالوجود أوسع من الإنسان بدرجة غير متناهية[١].

الإنسان واقع في الوجود. لذلك هو أسير هيمنته المطلقة ومنها الإنسان فقير إلى الوجود بنحو مطلق. لهذا لا يمكن اعتبار الإنسان أساس الوجود أو أنّه هو المعيار للرؤية، هذا في الجانب السلبي.

أما أن يكون لهذه الرؤية جانب إيجابي، الجانب الإيجابي هو ما يمكن اعتباره بأن النفس هي مقدمة لفهم الوجود بما تختزنه من وجود «**أعظم الحكمة معرفة الإنسان بنفسه**»[٢] - «**من عرف نفسه عرف ربه**»[٣] - «**غاية المعرفة أن يعرف المرء نفسه**»[٤] والانتباه أن الإنسان هو أساس بعض مراتب الوجود. نعم هذا كلام

---

(١) خاقاني، محمد، بينات، بيروت: دار التعارف، ط ١- ١٩٩٦ ص ١٣.

(٢) الطباطبائي، محمد حسين: رسالة الولاية، قم: قسم الدراسات الإسلامية، ١٣٦٠هـ.ق. ص ٣٨.

(٣) الطباطبائي، محمد حسين: المصدر نفسه. ص ٣٩.

(٤) الطباطبائي، محمد حسين: المصدر نفسه. ص ٣٨.

صحيح مع ملاحظة أن هذه مرتبة تتعلق بالإنسان الكامل دون غيره، لأن الوجود يأبى أن تجري الأمور إلا بأسبابها فإذا كان هذا النظام من الوجود هو كامل وهو أشرف نظام، فلا بدّ أن يكون السبب الذي ينشأ من هذا النظام هو أرفع منه ولا بد أن يكون كاملاً وهذا لا نجده إلا في الإنسان (الإنسان الكامل)، لأنه أعلى من هذا النظام الكائن.

خلاصة الحديث: يجب التفريق بين الوجود والموجود لكن أي موجود؟ الموجود المقيّد وإلا لا يمكن التفريق بين الوجود والموجود المطلق لأنه يصبح مطلق الوجود.

هناك إشكال وقعت فيه إحدى المدارس الإلحادية، فأخذت من قانون العلية قاعدة لتطبقها على الوجود فقالوا:

لكل موجود مُوجد (مقدمة صغرى)

الله موجود (مقدمة كبرى)

الله له مُوجد (نتيجة)

وهم قد اشتبهوا في أن الموجود هنا هو موجود مقيّد وليس موجوداً مطلقاً، والموجود المطلق ليس بحاجة لموجد لأن الوجود منه

ذاتيّ وأزليّ، لاستحالة إحاطته بالعدم (جمع النقيضين). وكما قسم الواجب إلى واجب بالذات، وهو الموجود المطلق الذي لا يحتاج إلى موجود، وبما أنه لا يحتاج إلى موجود فهو أزلي غير مسبوق بعدم، وبما أنه أزلي فهو أبدي سرمدي فإذا لم يحتج إلى موجود فهو كامل وبما أنه كامل فهو مطلق وبما أنه كمال مطلق فهو مطلق الكمال.

والتقسيم الثاني: هو الواجب بالغير وهو الموجود. إذاً الموجود إما موجود بالذات (مطلق) وأما موجود بالغير مقيد فليس كل موجود يحتاج إلى موجد فقط، الموجود بالغير هو الذي يحتاج إلى موجد.

الفصل الثاني

الرؤية الكونية المادية :

الرؤية الكونية المادية الاحتمالية

الرؤية الكونية المادية الأزلية

الرؤية الكونية المادية الإيجادية

الرؤية الكونية المادية اللامتناهية

الرؤية الكونية المادية الديالكتيكية

الرؤية الكونية المادية:

تعتمد هذه الرؤية على أن المادة هي أصل الوجود، ولا يمكن تفسير الوجود إلا بالمادة لأن الوجود هو المادة وبما سنخ عن المادة لا غير، وهنا تقسم هذه الرؤية إلى عدة رؤى كلها مرتبطة بالمادة ومنها:

١ ـ الرؤية المادية الاحتمالية: "Probability"

إن اعتبرنا المادة أصل الوجود والفرز، فرضت هذه الرؤية قانون احتمال على الكون، أي الاحتمال وارد في نشوء هذا الكون، وهو أن حركة المادة المتواصلة أفرزت هذا الاحتمال الكوني عبر الزمن، ويستدلون بقانون الاحتمالات التالي:

إذا وضعت عشر كرات مرقمة في إناء من الواحد إلى العشرة وخلطتها جيداً، وباشرت بإخراج كرة منها مبتدئاً من الرّقم واحد إلى العشرة متدرجاً بالترتيب، وكلما أخطأت تعيد الكرة إلى الإناء وتخلطها قبل أن تسحب التالية.

إن احتمال إخراج الكرة رقم (١) من المرة الأولى هو رياضياً نسبة واحد إلى عشرة. أما التتابع كرة رقم (١) ثم كرة رقم (٢) احتمال التتابع نسبة واحد من مائة وقد تقع بنسبة واحد من ألف على: (١) (٢) (٣) بالتتالي. أما احتمال نجاحك في استخراج العشر في ترتيبها العددي فلا يمكن أن يتفق إلا مرة من عشر مليارات مرة[١].

(١) الصادقي، محمد: حوار بين الإلهيين والماديين، بيروت: دار المرتضى، ط الثانية، ١٩٨٧، ص ١٦٣/١٦٤.

أما إذا حاولنا تطبيق طريقة التفكير هذه على الشروط والأسباب التي تحكم في نظام الكون، فتكون نسبة واحد إلى ملايين المليارات المليارات ومع هذا الوجود والخلق اللامتناهية تصبح مرتبة الاحتمال (مليارات العوامل التي تتوفر بناء خلية واحدة).

$$\frac{١}{\infty} = \frac{١}{\infty} = ٠ \text{ (صفر)}^{(١)}$$

وأيضاً من الناحية الفيزيائية إمكانية *Cellule* خلية واحدة توجب احتمالاً لامتناهياً وهو محال لأن هذا العدد في *Atome* غير موجود في الكون.

وهذا يعني انه ليس هناك احتمال بأن يكون الكون رتب ونظم من لدن خبير قدير.

(١) الصادقي، محمد: المصدر نفسه، ص ١٦٧.

٢- الرؤية الكونية المادية الأزلية: (الدّهريون)

هذه الرؤية كما ذكرنا تدور حول أصالة المادة، وهنا تعبر بأزلية المادة، بحيث تكون هي منشأ الموجودات، وهي أزلية الذات، وإن الحوادث والطوارئ عليها هي نتيجة للحركة والطاقة الكامنة فيها، أي عملت على إثبات هذه الصور والماهيات المختلفة المتعاقبة المتواردة على المادة في طول العالم وعرضه، فهي خالقة أزلية في جوهر ذاتها، وحادثة في تطوراتها لا تحتاج إلى خالق يخلقها كما الخالق في الميتافيزيقيا ليس له خالق، واعتمد قانون «Lawazieh» أن المادة تحدث من عدم كما أنها لا تنعدم[١].

وأصحاب هذه الرؤية كان يطلق عليهم في الماضي «الدهريين».

وقد اعتبرت هذه الرؤية أن المادة غير حادثة، وأن أزليّتها هي الاعتبار والأساس، لذا يمكن أنّه إذا أمكن البرهان على حدوث

---

(١) الصادقي، محمد: حوار بين الإلهيين والماديين، بيروت: دار المرتضى، ط الثانية، ١٩٨٧، ص ٥٩.

المادة انتفت الحجة بأزليتها.

ومن الأزلية والحوادث: الأزلية تعني اللا أوليّة للكائن، ويعني هذا أنّه لا يسبقه عدم إطلاقاً. فلا أول له ولا آخر زمنياً ولا دهرياً، لا ذاتياً ولا عرضياً، ولا بداية ولا نهاية.

إن الأزلية اللا أوليّة تستلزم الأبدية اللانهائية، دون عكس والموجود الأزلي الأبدي يسمّى سرمدياً.

والحدوث يأبى الأزلية كلياً، لأن الحادث هو ما له بداية، حتى ولو كان أبدياً. فاجتماع الأزلية والحدوث في كائن واحد هو اجتماع لنقيضين وهو محال، والمحال محال أينما حل.

وكما عرفنا أن الأزلية تستلزم الأبدية ويعبّر عن التلاحم بينهما بالسرمدية[1] اللاحدّية، أي ليس له حد من حدود المكان أو الزمان في الذات أو الصفات، فهو اللامحدود اللا بدائي واللانهائي الحقيقيّان.

لكن قد يمكن أن يكون هناك كائن أبدي وغير أزلي، وهنا يصبح عندنا أبديتان: فالأبدية الأولى مجرّدة، لأنها حادثة. والثانية مادية وغيرية بالحدوث. والأولى لا محدودة من حيث

(١) الصادقي، محمد: المصدر نفسه، ص ١٣٠.

الأزلية، والثانية محدودة من حيث البداية وبحاجة ذاتية إلى سواها في البقاء إلى غير النهاية.

والحادث فقير الذات ومحدود فقير ومحتاج لأنه مركب محدود بتركيبه، وهو متغيّر بالحركة والزمان. وهذا نقيض الأزلي، لذلك محال أن ينقلب حادث أزلي وكذلك العكس.

أما الدلائل العلمية التي تحيل أزلية المادة فهي كثيرة، منها القوانين العلمية الفيزيائية كقانون (ترموديناميك Thermody-namics)، أي الحرارة والحركة، ويسمّى أيضاً بقانون انتروبي (Intropie) الذي اكتشفه (Boltzman)، أو الديناميكا الحرارية.

فهناك انتقال حراري مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة دون العكس، حتى تتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة الجسم الذي كان بارداً بالجسم الذي كان حارّاً، حتى تنعدم العمليات الكيمائية والطبيعية ولا يكون هناك أثر للحياة نفسها في هذا الكون[١].

فهذا يستلزم إذا كانت المادة أزلية أن تنتهي الحياة فيها من

---

(١) الصادقي، محمد: حوار بين الإلهيين والماديين، بيروت: دار المرتضى، ط الثانية، ١٩٨٧، ص ٦٣.

الأزل طبقاً لقانون التبادل الحراري - وذلك مما يحيل أزلية المادة.

كما أن الكيمياء تدلنا على أن بعض المواد في سبيل الزوال أو الفناء، ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة، وعلى ذلك فإنّ المادة ليست أبدية ومعنى ذلك أيضاً أنها ليست أزلية إذ أن لها بداية.

وذلك لأن كل ما له نهاية فله بداية لا محالة، حيث النهاية علامة المحدودية والأزلي اللا بدائي لا حدّ له.

كما أن علم النجوم يشير إلى أن عمر الكون ابتدأ منذ خمسة بلايين سنة، أي أن الكون له بداية مما ينفي أزلية المادة، وكذلك غيرها من العلوم والقوانين التي تثبت بداية المادة وتنكر أزليتها.

أما بالنسبة لمقولة فيزيائية العالم الفيزيائي (بأن المادة لا تُفنى ولا تستحدث) فما كان إلا بينة فيزيائية في تحولات المادة، وهذا غير البحث الفلسفي الذي يعني بأزليتها وحدوثها. فإن التقلبات والتغيرات الماهوية في المادة لا تعني بهذه التغيرات كما أنها لا تحدث بعد زوال التقلبات.

ولكن هذا الفناء والحدوث هو للصورة الطارئة على المادة مع احتفاظ المادة بماهيتها...

مثال: $H + O = H2O$ لا تفقد ماهية المادة[١].

وقد نقل بعض فلاسفة الغرب (أمثال هيجل، برجسون، ووليم جيمز) أن الوجود أولي المادة متكامل ومتغير وهناك فرق بين أن تنسلب الحركة والتغير من الوجود وبين أن تثبت أن السكون له، بل بمعنى أن ذات الوجود هنا ثابت وهو نقيض التغير.

(١) الصادقي، محمد: المصدر نفسه، ص ٦٠.

٣ ـ الرؤية الكونية المادية الإيجادية :

تفترض هذه الرؤية أن المادة هي الموجدة لجميع الكائنات الموجودة في هذا الكون. أي أن المادة هي العلة الإيجادية للموجودات ومثال على ذلك: أنك إذا وضعت التفاحة فترة من الوقت حتى تتعفن، فإنّها ستخلف نوعاً من البكتيريا التي تنشأ من جراء هذه العملية، لذا نحن نعتبر أن المادة هي التي توجد تلك البكتيريا، وبما أن المادة هي التي أخرجت أنواعاً من المادة فهي العلة الأساسية في الوجود.

كما أنهم اعتبروا أن عالم الطبيعة كالساعة التي توقفت، وبعد ذلك تواصل عملها لوحدها، فلا تحتاج في استمرارية بقائها إلى الوجود وإلى الأبد.

وهنا يجب التفريق بين علتين: علة أساسية حقيقية ايجادية، وعلّة إعدادية اعتبارية شرطية.

فالمعنى العام للعلة هذا الذي يطلق على الموجود الذي يكون

طرف الارتباط (أي الذي يرتبط به موجود آخر) وهي ليست حصرية بالعلّة الأولى فقط، بل هي مرتبطة بالعلّة الأولي بالارتباط التسلسلي، أو الطولي (أو العمقي).

فكما ذكرنا هناك أنواع من العلل، تلعب كل علة دوراً بارزاً بحسب مرتبتها المشرفة على نظام العلل الطولي.

في العلّة الإعدادية الشرطية المعدة تكون أيضاً هناك أقسام من العلل، منها العلل البديلة والعلة المحدودة أو المنحصرة أو الفرعية (الخيال والنفس)

تعريف العلة الإيجادية: العلة الإيجادية هي التي تفيض وتعطي الوجود على المعلول مثال: الوجود المطلق بالنسبة للموجودات.

أما العلة الإعدادية: فهي العلة التي تكون شرطاً أو عاملاً في وجود المعلول، مثال: الإبن بالنسبة إلى أبيه.

وهناك فرق كبير بين هاتين العلتين:

١- **العلة الايجادية:** توجد معلولها من العدم إلى الوجود (العدم النسبي أي المكان)

أما العلة الإعدادية: فتؤثّر في مادة موجودة أصلاً ليتحقق وجود المعلول.

٢- **العلة الإيجادية**: تشتمل على جميع كمالات المعلول بشكل أتّم وأكمل، لأن العلة التي تعطي الوجود أيضاً كمالات الوجود (فاقد الشيء لا يعطيه).

أما العلّة الإعدادية فيمكن للمعلول أن يكون أكمل منها كالإبن لأبيه (أكمل من حيث القدرة أو العلم).

٣- المعلول يحتاج إلى العلة الإيجادية حدوثاً أو بقاءً، أما بالنسبة للعلة الإعدادية فالمعلول يحتاج إليها حدوثاً لا بقاءً مثال الأب والابن.

٤- المعلول هو عين التعلق والربط بعلة الإيجادية أي حيثية وجود المعلول وانتسابه إلى علته الإيجادية شيء واحد لا اثنان مثال: الوجود والموجودات ﴿شعاع الشمس بالشمس﴾ وهو خلاف العلة الإعدادية التي تكون منفصلة عن معلولها أي مستقلة عنه»[1].

لذلك فإنّ عالم الكون محتاج ومفتقر دائماً وفي كل شؤونه وحالاته إلى الوجود المطلق.

---

(١) اليزدي، محمد تقي المصباح: دروس في العقيدة الإسلامية، ج ١، بيروت، دار الحق، ١٩٩٣، ص ٨٦ - ٨٧.

٤ ـ الرؤية الكونية المادية اللامتناهية:

المادة = الوجود الوجود = المادة

الوجود كله مادة فإنّ الكون حقيقة لا شك فيها ولكنها ليست إلا المادة و لا نجد إلا المادة. فالكون والاكتشافات الكونية لا تجد إلا المادة وخواصها والإدراك لا يلمس إلا المادة[١]. لذلك فإذا كان الوجود لا متناهياً، تصبح النتيجة: المادة لا متناهية.

ومن الطبيعي أن ترد إشكالات كثيرة على هذا التصور. فرفض ما سوى المادة يفترض بأن المادة هي حقيقة واحدة للوجود. ونحن نرى هذه الكثرات الموجودة فهل هي من ذات المادة أم من خارجها، الثانية نقيض الطرح. أما الأولى: فعلى فرض الجواب بالذات يسأل أهذه الذات مادية أم مجردة؟ يجب حتى تتكثر هذا المادة أن تكون متصلة بما سواها من المادة حتى تكون عالمة بما تصور، ثم هل هي ذاتية متعددة أم متحدة فإذا كانت متعدّدة، فهذه المادة

---

(١) الصادقي، محمد: حوار بين الإلهيين والماديين، بيروت: دار المرتضى، ط٢، ١٩٨٧، ص ٣٨ - ٣٩.

فقيرة ومحتاجة إلى أجزائها، أما إذا كانت متحدة فهذا يعني أنها ذاتية مطلقة متحدة. وهنا يُسأل هل هي عرضية أم طولية فإذا كانت عرضية تمددت وانتشرت ذاتيتها، وإن اختلاف الكثرات في الزمان والمكان يشير إلى تعدّد الذاتية وإلا قلنا بالجوهر. أما من حيث الطول فهل هذه المراتب مختلفة أما واحدة فإذا كانت مختلفة انتفت الوحدة للذات، وإذا كانت متحدة فتتزاحم الذاتية المادية في مراتبها ممّا يحيل وحدة المادة المطلقة هذا أولا. أما ثانياً: فإنّ هذه الذاتية المستقلة للمادة لا تستطيع الحلول في الذّهن.

كما أن استقلالية الأجزاء أو الأعراض المادية كالعرض والكم والكيف، لا ينسجم مع الكثرات المادية من حيث التزاحم الكياني الواحد.

مثال: الريشة فأنا لا أشك في كيانها، أما إذا اعتبرت بأن لها استقلالية في العرض والكم والكيف، فيزول كيانها لأنها لا تنسجم انتسابها كلها. فلا بد لها من جوهر مادي تتمحور فيه جميع الأعراض عبر الحس أو العقل.

كما أن انتشار المادة يستلزم التركيب من أجزاء والاحتياج، والفقر والجهل لعدم حضور المعلوم عند العالم، كما أن هذا

الامتداد يلزم التفكك والانفصال، وهذا ما يؤدي على الأقل للفناء الصوري للمادة بعد ابتعادها عن أجزائها، وكل هذه الصفات هي سلبية مما يرفضها الوجود المطلق الذي لا يقبل العدم.

كما أن الزمان هو البعد الرابع للمكان، فإطلاق المادة يتعاطى مع انحصاره في الطبيعة. وكما قلنا الوجود المطلق حاضر عند نفسه فيلزم أن تكون المادة حاضرة عند نفسها حتى نثبت إطلاقها، وهذا محال مما عرفناه من انتشارها وتركيبها وضعفها واحتياجها.

فلا بد لجوهر لهذه المادة لأن الموجود الإنساني يمكنه أن ينتزع مفهوماً مادياً مستقلاً عن المادة في الأوصاف، وهذا خلاف أصالة المادة المحققة فقط في الخارج.

الرؤية الكونية المادية الديالكتيكية

كما ذكرنا أن للمادية مذاهب مختلفة، كل واحدة منها تبني رؤيتها على وِفْقِ تصورها الخاص وعبر وسائلها المحددة، ومنها التصور الميكانيكي للمادة الذي اعترض عليه اعتراضاً شديداً من حيث إلغائه لقانون العلية بشكل أو بآخر وقد ناقشنا مبدأ أفكار العلية أو العبثية الكونية.

أما في ما يتعلق بالرؤية الديالكتيكية حيث اعتبر أن حركة التضاد في داخل المادة تنتج هذه الحركة تطوراً ونتيجة جديدة أي أن التناقض والتضاد هو من أصل الكون وهو منسجم معه وفي تكامله، لأن حتى الخلية الصغيرة هناك شحنة موجبة وشحنة سالبة، فهذا قانون عام بل هو ثابت في صميم كل واقع وحقيقة فما من قضية إلا وهي تنطوي في ذاتها على نقيضها ونفيها. فهي قاعدة شاملة للمجتمع والتاريخ والعلم والإنسان والدولة.

يقول ستالين: «إن نقطة الابتداء في الديالكتيك خلافاً للمتافيزيقية: هي وجهة النظر القائمة على أن كل أشياء الطبيعة

وحوادثها تحتوي تناقضات داخلية، لأن لها جميعا جانباً سلبياً وجانباً إيجابياً - ماضياً وحاضراً وفيها جميعاً عناصر تضمحل وتتطور وتوضيحاً يعتبر الماديون الديالكتيكيون أن كل ظاهرة مركبة من ضدين Thése و Antithése، والتضاد هو العامل في حركة تلك الظاهرة حيث تتصارع الأضواء فتغلب الـ Antithése ليصدر نتيجة جديدة هي sinthése وكذلك في المجتمع حيث صراع الطبقات أو في التاريخ حيث التضاد الحضاري أو القلبي أو غيره. وكان هيجل أول من نظر لفكرة الجدل الديالكتيكي ثم تطورت مع الماركسيين حتى وصلت هذه الفكرة إلى إمكان اجتماع النقيضين عندهم بل جعلوا التناقض المبدأ الأول لكل معرفة صحيحة عن العالم.

يقول لينين: «فإذا كان ثمة تناقضات في أفكار الناس فذلك لأن الواقع الذي يعكسه فكرنا يحوي تناقضات فجدل الأشياء ينتج جدل الأفكار وليس العكس».

وقال ماركس: «ليست حركة الفكر إلا انعكاسات لحركة الواقع منقولة ومحولة في مخ الإنسان».

كيف طبقوا هذه الفكرة على مفهوم الوجود؟

فالوجود بما أنه ثابت فهو (موجب) أو (+ Positive)، والإنسان موجود والحيوان والشجر والجبال والمثلث كل هذا هو موجود. لكن الوجود ليس شيئاً محدداً في المثلث أو الحيوان أو الجماد وهو بالتالي ليس موجوداً فهو سالب Negative، فهو تناقض لأنه موجود وغير موجود فينتج موجوداً لا يوجد على التمام. وهو صيرورة وتجدد مستمر.

وكذلك يمكنك أن تطبق هذه القاعدة على اختلافي أو تناقضي أنا وأنت في الحوار لنخرج بنتيجة جديدة. وبذلك يكون المنطق الديالكتيكي قد وجّه ضربة قاسية إلى المنطق الكلاسيكي أو المنطق الإنساني العام أو الميتافيزيقية التي بنت أسسها على هذا المنطق. كما اعتقدوا بأن المتيافيزيقية تثبت السكون وعدم الحركة والتطور وإلا أصبح الله عندهم متغيّراً من حال إلى حال رغم أن ذلك من المسائل البديهية التي يشعر بها الناس.

وهنا نحن نرى ثلاثة نقاط أساسية تدور حولها هذه الرؤية:

١ - التناقض

٢ - سلب الهوية أو الشيء عن ذاته.

٣ - الحركة (الثبات أو السكون والتغير)

الركيزة الأولى هي مبدأ التناقض الموجود في كل الأشياء، والركيزة الثانية تهدف إلى الربط بين التناقض والحركة التطورية وهي سلب الشيء عن ذاته فطالما أن التناقض يؤدي إلى التطور الدائم للأشياء فإن سلب الهوية أمر ممكن، لأن الشيء يكون في صيرورة دائمة.

الركيزة الثالثة هي مبدأ عدم السكون والجمود في الطبيعة.

١ - نقض الركيزة الأولى:

أما الجواب على الركيزة الأولى فيمكن أولاً بمعرفة الخطأ الفادح الذي ارتكبه أصحاب هذه النظرية. وهو عدم فهم ما يعنيه المنطق الكلاسيكي بعدم التناقض أو الخلط بين كلمتي التناقض والتضاد مع أن الكلمتين ليستا مترادفتين في المصطلحات الفلسفية فإن التناقض هو حالة النفي والإثبات معاً والتضاد فهما إثباتان متعاكسان ومثال الأول الوجود والعدم والثاني الليل والنهار. وليس التنوع أو الاختلاف ضداً كما اعتبروا فإن الضد هو الوصف الذي لا يجتمع مع الوصف الآخر في شيء واحد.

لكن لكي نوضح أيضاً ما هو التناقض الموجود منطقياً فليس كل نفي وإثبات هو تناقض وإنما النفي والإثبات الذي يكون في موضوع

واحد هو الذي يكون تناقضاً أما إذا كان للنفي موضوع وللإثبات موضوع فهذا ليس تناقضاً مثال أن الطقس في الصيف حار والطقس في الشتاء لا يكون حاراً، فالنفي والإثبات في هاتين القضيتين لا تناقض بينهما لاختلاف الموضوعين. فالإثبات تعلق بفصل الصيف والنفي تعلق بفصل الشتاء.

وهكذا فمن الممكن أخذ نفس الموضوع ولكن بزمان مختلف ومن الممكن أن يكون نفس الزمان والموضوع بمكان مختلف، لذلك جعلوا لتحقق التناقض شروطاً تسعة، كلها تدور حول وحدة المصداق الذي تحيل فيه النقيضين: اجتماعاً وارتفاعاً:

١ - وحدة الموضوع

٢ - المحمول

٣ - المكان

٤ - الزمان

٥ - الشرط

٦ - الإضافة

٧ - الجزء والكل

٨ - القوة والفعلية

٩ - الحمل

فالتناقض كما ذكرنا له شروط لكي يتحقق، كوحدة الموضوع والزمان والمكان، أو أن يكون محمولاً أو شرطاً أو إضافة أو جزءً أو كلاً أو قوةً وفعلاً معاً أو أن يكون حملاً.

ويعترض أيضاً على هذه الركيزة الأولى نتيجة هذا التناقض، هل هي متناقضة أو أنها إيجابية؟ فإذا كانت متناقضة أين يمكن الأخذ بها وأين يمكن تركها، يصبح تصديقها وتكذيبها شيئاً واحداً، وأما إذا كانت إيجابية فقد خلت من الجانب المضاد لها ونقضت مبدأ التناقض.

ثانياً: إذا كانت كل ظاهرة مركّبة من ضدين فلا بد أن يكون لكل ضد من الضدين ضدان حتى نصل إلى أضداد غير متناهية في كل ظاهرة.

كما فهمت المادية التناقض على أنه صراع بين أضداد خارجية مع أن هذا المبدأ لا يتعارض مع عدم التناقض، فهذا الرداء نتج عن عملية قامت بين قطعة من القماش ويد خياط. فلم تجتمع الأضداد في وحدة بل وجودها خارجي مستقل في مجاله الخاص واشتركا في عمل متبادل كان له نتيجة معينة، وقد سبقها المنطق الكلاسيكي في هذه النظرية عبر أفلاطون وأرسطو في القرون الأولى للفلسفة.

أما الركيزة الثانية: وهي سلب الهوية أو الشيء عن ذاته، فهو نتاج التناقض الذي يؤدي إلى الحركة والحركة إلى تطور دائم. والتطور الدائم يسلب الهوية بشكل دائم عن الأشياء. والشيء يكون في صيرورة دائمة. هذا المنطق يمكن أن يقاس بالأشياء في الوجود، نعم لأن الأشياء (أي الموجودات) فجانبها المادي له بعد زمني والزمان متحرك دائماً لذلك فإن التطور اللاحق للأشياء هو أمر طبيعي ملازم لبعدها الزماني وهذا ما أثبته الملا صدرا في نظرية الحركة الجوهرية للأشياء. كما أن الحركة الدائمة للأشياء من القوة إلى الفعل ينتج هذه الحقيقة أي التطور الدائم وسلب الهوية لا يعني عدم ثبات المفاهيم لما ذكرناه من تعلق الحركة بالماديات.

أما بالمفهوم الوجودي: فالوجود يقسم إلى ثابت ومتحرك.

ويمكن النظر إليه بنظرية الثبات في عين الحركة والحركة في عين الثبات تماماً كنظرية الوحدة في عين الكثرة والكثرة في عين الوحدة لأن الكثرة ترتبط بالكثرات المادية والكثرات المادية لها بعد مادي والثبات مرتبط بالوحدة التي هي البساطة لا تتركب ولا تتجزأ.

ولتوضيح هذا الأمر يقسم الوجود إلى وجود مادي وإلى وجود

غير مادي الوجود المادي بجميع أبعاده متحرك وكثرات وهو الظهور المطلق أي (واحد). أما القسم الآخر للوجود هو الوجود المجرد غير المادي الذي ليس فيه أبعاد لأنه مطلق غير مقيّد بحدود المادة الداخلية أي (أحد، صمد) وهو البطون المطلق الذي لا يشار إليه برسم ولا اسم ولا رمز.

إن الثبات الذي نتكلم عنه هو في هذا القسم من الوجود وهو البطون، أما الظهور فكله حركة وتتطور وهو ما يسمى بعالم العرش وما دونه، أما البطون فهو ما فوق العرش.

لذلك فمنطق سلب الهوية الدائمة يرتبط بالماديات ولا يرتبط بالثوابت المطلقة في الوجود.

أما بالنسبة للثوابت الفكرية البديهية فليس هناك سلب للهوية وإلا دخلنا في العبثية والعشوائية الفكرية، ففكرة أني موجود ثابتة لا تتغير بتناقض الأفكار وتطورها فثمة جملة مفاهيم لا تتغير كوجودي. كوجود الأب والأم. أو القمر أكبر من يدي أو الاثنين أكبر من الواحد، فثمة قوانين ضرورية للإنسان ليبني عليها فكره وحياته وثمة بديهيات لا يمكن التجاوز عنها أو نفيها.

أما الركيزة الثالثة وهي الحركة ومبدأ عدم السكون والجمود في الطبيعة.

نعم، ذكرنا هذا في الركيزة الثانية بأن الحركة تطال الوجود المادي المتكثر ولا تطال الوجود المجرد عن المادة وأن النظر بعين واحدة إلى الوجود هو نظرة ناقصة لأنها نظرة لا تفهم الوجود الحقيقي وتقيده بأبعاد ومحدوديات.

حتى فكرة الحركة هل تولد قناعة ثابتة عند أصحاب هذا المذهب؟ فإذا ما ولدت قناعة ثابتة بأن الكون متحرك دائماً أصبح لدينا مفهوم ثابت ناتج عن الكون المتحرك فأصبحت هذه الحركة تولد ثباتاً في المفاهيم وهو خلاف طرحهم[1].

أما إذا قالوا بأن الحركة تولد عندنا قناعة غير ثابتة فهذا نقيض لأنهم لم يثبتوا حتى قناعتهم بالموضوع مما يوقعهم بالتسلسل المرفوض لما يترتب عليه من عبثية وعدم تقديم معرفة للبشرية.

إن الطرح الديالكتيكي ظن أنه وجه صفعه إلى المنطق البديهي أو إلى الميتافيزيقيا عبر ركائزه التي اعتمدها ولكن المنطق البديهي والفلسفة العقلية كان قد أجاب على هذه الركائز قبل الديالكتيكية بقرون مضت ولكن قصور أصحاب هذا الفكر في فهم الفلسفة العقلية أو حتى قراءتها دفعهم إلى الاعتقاد بهذه المفاهيم.

---

(١) ولا يعني هذا بالنقيض الذي يؤيدونه لأننا شرحنا سابقاً بأن النقيض الذي يتكلمون عنه هو التضاد وليس النقيض لأن النقيض مرفوض عقلاً وقد بينا أسباب رفضه.

الفصل الثالث

الرؤية الكونية العلمية:

الرؤية الكونية العلمية السلبية

الأسباب المرفوضة بالنتائج

الرؤية الكونية الإيجابية

الرؤية الكونية العلمية:

تعتمد هذه الرؤية بشكل أساسي على النتائج العلمية القائمة على التجربة والاختبار حتى يتم التأكد من صحة الحكم. فالتجربة تُعد كمصدر أول لجمع المعارف البشرية، ويستند في ذلك إلى أن الإنسان حين يكون مجرداً عن التجارب بمختلف ألوانها، لا يعرف أي حقيقة من الحقائق مهما كانت واضحة[1].

وقد رفضت هذه الرؤية أي تصور غير خاضع للتجربة العلمية أو النتائج العلمية، وقد أتى هذا التصور طبعاً لإدراك الحقيقة وليس التخمين أو الظن أو الحدس أو التكهن مما يعطي مصداقية في الحكم وهذه الرؤية تنكر المعارف العقلية الضروريّة السابقة على التجربة. وحتى تلك الأحكام التي ينتزعها العقل أو حتى البديهيات لا بد من إخضاعها للمقياس التجريبي.

تبدأ الرؤية بفرضية ثم تُجرى عليها التجارب العلمية، حتى تأخذ صفة المبدأ أو القانون العلمي وتبقى الفرضية حتى تحل

---

(١) الصدر، محمد باقر: فلسفتنا، بيروت. دار التعارف، ط ١٠-١٩٨٠ ص ٧٤.

محلها فرضية أخرى أشمل وأقوى.

وهذه التجربة هي التي تكشف علة الشيء وأثره ومعلوله، ثم يتم البحث عن العلة والمعلول وهكذا يمكن اتباع الحقيقة عبر مصداقية التجارب العلمية[١].

يمكن أن تقسم هذه الرؤية إلى قسمين:

١-الرؤية الكونية العلميّة السلبية.

٢-الرؤية الكونية العلميّة الإيجابية.

(١) مطهري، مرتضى: المفهوم التوحيدي للعالم، بيروت: دار التيار الجديد، ١٩٨٥، ص ٧.

الرّؤية الكونية العلميّة السلبية:

إذا وقفت هذه الرؤية على التجربة والاختبار ورفضت جميع المفاهيم والمعارف العقلية البديهية وجعلت من مصدرها الّذي تتخذه أساساً ومنطلقاً فهي مرفوضة لعدة أسباب.

منها أسباب تتعلق في النتائج وأسباب أخرى تتعلق بالتجربة نفسها.

الأسباب المرفوضة التي تتعلق بالتجربة:

١- إن مفهوم التجربة حتى يكون مبرهناً ومصدراً يجب أن يخضع لمفهوم التجربة، وإلا أصبح الحكم المنتزع من التجربة عقليّاً وهو عكس القاعدة.

وهنا إما أن نقع في التسلسل أو في رفض التجربة، لأنها ليست معياراً لتجربة أخرى أو انتزاع حكم عقلي من التجربة والاختبار.

٢- **عجز التجربة عن إثبات المادة:** لأن إخضاع المادة إلى التجربة يجعلنا نتعاطى مع ظواهرها المادية (صفاتها)، فالماء

الذي نلمسه باليد، إنّما نحن نحس نعومته وطعمه وشكله، ولا نحس بالجوهر الذي تتلاقى فيه جميع هذه الصفات[١].

ولا يمكن إدراك هذا الجوهر إلا بحكم عقلي يرتكز على المعارف العقلية البديهية.

فكما أن التجربة يلزمها برهان أو حكم عقلي، كذلك ما تتعاطى معه من المادة بحاجة إلى حكم عقلي (أي التجربة أو المجرب كلاهما بحاجة إلى حكم عقلي).

٣- **إنكار مفهوم الاستحالة العقلية**: إذا اقتصرت المعرفة على التجربة أنكرنا الاستحالة العقلية، بمعنى عدم إمكان وجود شيء وهو ليس من اختصاص التجربة.

فهناك فرق بين الممكن عقلاً، والمستحيل عقلاً. المادة يمكن أن تثبت بعدم وجود الشيء حتى الآن وليس باستحالته، العقل يفيدنا استحالة بعض الأشياء ولكي نوضح نعطي بعض الأمثلة: إذا قلنا بأنه يمكن لإنسان أن يعيش عشرة الآف سنة - هنا لا يسلب عنه إمكان الوجود، أما إذا قلنا بعد عشرة الآف سنة يكون هذا الإنسان موجوداً ومعدوماً في آنٍ معاً، فإنّ هذا المفهوم يمكن الحكم عليه

---

(١) مطهري، مرتضى: المفهوم التوحيدي للعالم، بيروت: دار التيار الجديد، ١٩٨٥، ص٧٧.

بالاستحالة وهو حكم عقلي بديهي (لعدم اجتماع النقيضين وارتفاعهما)، وإن لم يكن خاضعاً للتجربة وهو ليس معدوماً فقط بل لا يمكن أن يوجد مطلقاً.

وهنا نقع بين اتجاهين، إما أن نعترف باستحالة أشياء معينة كالمثال الثاني، وإما أن ننكر مفهوم الاستحالة لعدم خضوعه للتجربة.

فإن اخترنا الاتجاه الأول فقد استندنا إلى معرفة عقلية مستقلة لا إلى التجربة، لأن عدم ظهور شيء في التجربة لا يعني استحالته.

وأما إذا أنكرنا مفهوم الاستحالة مهما كان غريباً ومتناقضاً لدى العقل والمفاهيم العقلية، فليس هناك قيمة أساساً للتجربة، أي يمكن إنكار نتائجها على ضوء اجتماع التناقض. وكما أنه يمكن إسقاط جميع المعارف والعلوم ولا تكون التجربة مصداقاً، ويمكن تكذيبها حتى وأن أعطت النتائج المتكررة والمبرهنة تجريبياً، فلا يمكننا أن نجزم بصدقها ما دام من الممكن تناقض الأشياء وهو خلاف القاعدة الأساسية في المعرفة.

٤ - لا يمكن للتجربة أن تثبت مفهوم قانون العلية الراجع إلى

الطبيعة العقلية والبديهيات العقلية التي تستنتج هذا القانون، وهو امتناع الصدفة مجرباً كان أو غير مجرب.

فالتجربة لا يمكنها أن توضح ظواهر، كحركة اليد وحركة القلم حال الكتابة رغم وقوعهما في زمنٍ واحد، إلا أنها لا يمكنها أن تفيدنا بالسببية من هذه الظاهرة أو كمثال التعاقب بين الماء وهو يغلي إذا صار حارّاً بدرجة مائة. فهي لم تكشف الضرورة القائمة في هذه الظاهرة ومهما تكررت التجربة وكانت دقيقة لا يمكنها إثبات قانون العلية، يمكنها فقط أن توضح التعاقب بين ظواهر معينة.

فإذا أنكرنا مبدأ العلية انهارت معه جميع المعارف والعلوم وحتى التجربة نفسها.

خلاصة: إن التجربة نفسها هي قائمة على قاعدة كلية وعلى عدة معارف لا يمكن الاستناد عليها إلا عقلاً. فبناء قاعدة وقانون لا يتم إلا بالتسليم بمعارف عقلية سابقة.

الأسباب المرفوضة بالنتائج:

١ - **المحدودية**[١][*]: إنّ نطاق التجربة محدود بحدود الظواهر التي تخضع للتجربة[٢] ولا تستطيع التجربة أن تطال ظواهر بعيدة عنها. كالمسائل أو الأحداث التاريخية والعلاقات الاعتبارية، وما وراء المادة أو العلل والأسباب أو حركة العلل أو حركة الإنسان أو الغائية الكونية أو البداية أو النهاية الكونية، كل هذه المسائل ليست في متناول التجربة والعلم التجريبي لذلك لا نستطيع الخوض فيها أو الإجابة عليها.

من هنا نجد أنّ نطاقه محدود بحدود التجربة التي يخوض فيها، ويصل بعدها إلى طريق مسدود.

٢- **الجزئية**[٣]: كون الأمور التجريبية تتعلق بالظواهر الحسية،

---

(١) **مطهري**، مرتضى: المفهوم التوحيدي، ص ٨.

◆(**وهي** غير المحدودية العلمية إذ يثبت العلم بأن حقائق القوانين والكون هي عبارة عن **أرقام**، **فالكون** هو عبارة عن رقم معيّن، وكذلك الراديو والتلفزيون عبارة عن أرقام معيّنة **موجودة** في **الكون**، وهناك حدود لا يمكن تخطّيها في العلم كالوصول إلى ٢٨٠ درجة تحت **الصفر**، **فهناك** حدود للتحكّم أو لمعرفة الأكترون أو البروتون داخل الخلية بحدود معيّنة).

(٢) **مطهري**، مرتضى: المصدر نفسه، ص ٨.

(٣) **مطهري**، مرتضى: المصدر نفسه، ص ٨.

فإنّ ملاحظة الحسية تتعلق بالأمور الجزئية، والفرق بين المحدودية والجزئية هو أن المحدودية توصل إلى طريق مسدود، أما الجزئية فتتعاطى مع جزء من الكل فالعلم يعرفنا على بعض أجزاء العالم لا على الشكل العام. وهو لمن يقف في شارع المدينة ويريد أن يصف المدينة بأكملها.

٣- **التزلزل**[١]: Instabilite وهو عدم الثبات فالفرضية العلمية بعد التجربة والاختبار يمكن التبدّل فيها، لأن الفرضية والتجربة لهما قيمة وقتية وليست مبادئ بديهية عقلية ثابتة. فالاكتشاف العلمي إما أن يلغي فرضية سابقة أو ينشئ أخرى، ولذلك هي غير يقينية المبدأ، ولا يمكن الاعتماد على المتزلزل في الرؤية الكونية.

٤ - **فقدانه للبعد النظري**[٢]: الرؤية الكونية العلمية أو التصور يظهر بوضوح في الجانب العملي والفني ويعطي بعداً للتطور الآلي والعملي، لكنه لا يملك أي قيمة نظرية أو بعداً واقعياً: فالاعتماد على الجانب الفني والعملي لا يصل إلى الطريق السليم وهو كمن يركب مركبة حديثة ومتطورة جداً ولكنه لا يعرف الطريق في الصحراء. بينما البعد النظري يوصل ولو بأقل الإمكانيات الفنية المتاحة، ومثاله كمن يركب جملاً ويعرف طريقه في الصحراء

(١) مطهري، مرتضى: المصدر نفسه، ص ٩.
(٢) مطهري، مرتضى: المصدر نفسه، ص ١٠.

فالأول لا يصل إلى ضالته ومبتغاه لجهله بالهدف ثم بالطريق، أمّا في المثال الثاني فهو يعرف كلا الأمرين لذلك فهو واثق من خطاه ومتجه إليها بهذه المعرفة.

٢- الرؤية الكونية العلمية الإيجابية:

- إيجابية مشتركة:

وهي الرؤية القائمة على المبدأ العلمي والفرضية والملاحظة والتجربة. بالإضافة إلى اعتمادها على البديهيات العقلية الأولية، وإفساح المجال للعقل للتحكم بهذا المبدأ العلمي، وبهذا بدلاً من أن يكون المبدأ العلمي هو الأساس والمصدر الوحيد لفهم العالم، يصبح المبدأ العلمي أركاناً أساسية بالإضافة إلى أركان أخرى كالمعرفة العقلية وغيرها تصبح ركناً أساسياً في فهم العالم.

- إيجابية ذاتية:

أما الإيجابية الذاتية للمبدأ العلمي التجريبي أو التصور العلمي. فهي كونها

١ - **مقدمة للعمل:** تمنح الإنسان القدرة والقوة على التغير والتصرف في الطبيعة، وتجعله مسيطراً على الطبيعة ويسخّرها في سبيل تحقيق غايته وميوله.

٢ - **القيمة الفنية:** العمل المنجز من خلال التصور العلمي يعطي بعداً جمالياً وفنياً ومتكاملاً.

٣ - **التجديد والتطور:** المبدأ يحث على الاكتشاف والتجربة وهو دائماً متجدد نتيجة تجاربه الكثيرة، مما يعطي بعداً تطورياً متقدماً مما يعكس ذلك على الإنسان نفسه، فالتطور في الأدوات والآلات والمشرب والمأكل والملبس تعكس تطورها على الإنسان، وهذا واضح من خلال التطور الهائل التكنولوجي والحضاري الإيجابي على الكائن الإنساني.

٤ - **اكتشاف أسرار في الكون:** تقوم الرؤية الكونية بالاكتشافات المتلاحقة مما يجعلنا نضيء المجهول بالمعرفة والقيمة العلمية في الكون الفسيح، ونفهم الكثير من الغوامض والمجهولات التي تعيق حركة الإنسان، وتجعل من محيط مناورته أوسع من ذي قبل (كما أنه يكشف العلل والمعلولات والآثار بحدود قيمته).

٥ - **الدقة والتشخيص:** فهي دقيقة وجزئية ومشخصة حتى يمكن أن تعطينا التفاصيل الدقيقة لحشرة صغيرة أو نبته أو قطعة خشب، وتحلّل بعض الأسباب والمسببات حولها.

٦ - **الإحاطة بالجزئيات:** كما أنها توفر آلافاً من المعلومات

أيضاً حول الجزئيات الصغيرة التي يحيط بها فكما أنها دقيقة ومشخصة فهي أيضاً محاطة بالجزئيات في حدود إطلاعها وتسخيرها للأشياء.

خلاصة: إن المقبول من الرؤية الكونية هو الجانب الإيجابي الذي يكون عاملاً في فهم الكون ولا يكون حصراً وملخصاً ومحدوداً بحدوده، إضافة إلى أنه يكون جزءاً من الكل ومشاركاً في الصور والمعرفة الكونية.

الفصل الرابع

الرؤية الكونية الفلسفية العقلية

الرؤية الكونية الفلسفية النسبية

الرؤية الكونية الفلسفية البديهية الإيجابية

سلبيات الرؤية الكونية الفلسفية العقلية البديهية

حقائق موضوعية

الشرائط اللازمة لتحصيل الفلسفة

فوائد فلسفية

الرؤية الكونية الفلسفية العقلية :

الفلسفة: تعبير له أصل يوناني وهي كلمة فيولوسوفيا: (فيلو) بمعنى الحب و «سوفيا» بمعنى العلم والمعرفة[1].

إذاً هي كلمة تعني حب المعرفة أو العلم. والفيلسوف هو الإنسان الباحث عن الحقيقة وظهور الفلسفة العقلية كان للوقوف في مقابل جماعة السفساطئيين الذين استعملوا المغالطة في الاستدلال.

الفلسفة قسمان:

١- الفلسفة النظرية.

٢- الفلسفة العملية.

١- **الفلسفة النظرية:** هي التي تبحث حول الأشياء كما هي موجودة وتقسم إلى ثلاثة أقسام:

أ - **الفلسفة العليا:** وهو العلم الأعلى (إلهيات) ما بعد الطبيعة (ميتافيزيك).

---

(١) مطهري، مرتضى: الفلسفة، بيروت. دار التيار الجديد، ط ١، ١٩٩٣، ص ١٢.

ب- الفلسفة الوسطى: الرياضيات، الهندسة.

ج - الفلسفة السفلى: الطبيعيات[١].

٢- **الفلسفة العملية:** هي التي تبحث حول أفعال الإنسان كما يجب، ويفترض أن تكون وهي ثلاثة أقسام:

أ - علم الأخلاق.

ب - علم تدبير المنزل.

ج - علم سياسة المدن[٢].

أما الرؤية الفلسفية العقلية فهي التي تتوصل إليها من خلال استخدام الأسلوب العقلي والبديهيات، بحيث تسلم لها كافة العقول ولا يمكن للذهن إنكارها وتفرض نفسها عن طريق البرهان والدليل والاستدلال، وهو المقياس الأول للتفكير البشري بصورة عامة والركيزة الأساسية التي لا يستغنى عنها في كل مجال، وهي أوسع من نطاق الحس والتجربة. مثال التسلسل ممتنع (الأربعة عدد زوجي) زوايا المثلث تساوي قائمتين، وللرؤية الكونية الفلسفية العقلية عدة أقسام منها:

---

(١) مطهري، مرتضى: المصدر نفسه، ص ١٤- ١٥.

(٢) مطهري، مرتضى: المصدر نفسه، ص ١٤- ١٥.

أ- الرؤية الكونية الفلسفية العقلية النسبية:

(وهي غير الفلسفة للكائنات) المقصود هنا الحقيقة النسبية الموجودة في المذاهب الفلسفية المختلفة، إذ تجد في كل مدرسة فلسفية أو مذهب فكري معين جانباً أو جوانب نسبية من الحقيقة تستخدم العقل في التوصل إلى الحقائق، لذلك إن اختلاف هذه المدارس والمذاهب في الرؤية، راجع لعدم اعتمادها على البديهيات العقلية الأولية بشكل كامل، فترى في المثالية جواب بديهية حقيقية، وفي المادية أيضاً كما في الوجودية أو النسبية أو الوضعية أو البرجماتية أو غيرها كما تجد فيها الجوانب السلبية التي لا تمت إلى المنهج العقلي أو البديهيات العقلية، لذلك لا يمكن اعتبارها مركزاً أصيلاً ومصدراً بين الرؤية الكونية.

ب - الرؤية الكونية الفلسفية العقلية البديهية الإيجابية:

تتميز هذه الرؤية بايجابيات عديدة كونها عقلية وبديهية فهي أيضاً ذات ميزات عديدة:

١- **الشمولية**[١]: إنّ هذه الرؤية هي شاملة ككل أقسام الوجود، ولا تختص بالظواهر الحسية. ولها بعدٌ واسعٌ جداً، يجهز الفكر البشري بطاقات تتناول ما وراء المادة من حقائق وقضايا ويمتد في حدود أبعد من المادة والتجربة، كما أنه يتناول مواضيع مثل: هدفية العالم، بدايته، نهاية، والعلل، والأسباب، والأحداث التاريخية، والعلاقات الاعتبارية.

٢- **الكلية**[٢]: بحيث لا تكون الرؤية جزئية، بل تكون مفهوماً عاماً ينطبق على مصاديق الوجود وهنا يكون التصور بشكل كلي وعام، ويكون التدرج فيه من الكليات إلى الجزئيات، كأن يأخذ المفهوم العام ثم يخصصه في إطار البديهيات العقلية.

---

(١) مطهري، مرتضى: المفهوم التوحيدي للعالم، بيروت - دار التيار الجديد، ١٩٨٥، ص ١١-١٢.

(٢) مطهري، مرتضى: المصدر نفسه، ص ١١-١٢.

وفي الرؤية الكلية كمن يصف المدينة وهو مشرف عليها من طائرة تحوم فوق حدود تلك المدينة، فالتالي سيكون التصور عاماً وكليّاً.

٣- **الثبات**[١]: فالمفهوم العقلي ثابت غير متزلزل، وغير متغير لا في زمان ما ولا في مكان ما، فالمفهوم البديهي يقينيّ ومفيد للاطمئنان. ومثال على الثبات في الزمان والمكان هو أن الواحد رقم مفرد فلا يتغير في الآسكا أو في زامبيا ولا يتحول إلى عدد مثنى.

٤- **البعد النظري والعملي**[٢]: التصوّر الفلسفي: العقلي يملك بعداً نظرياً يكون مقدمة للعمل، ومؤثّراً فيه لأنه يشخص اتجاه العمل والطريق والحياة للهدف الإنساني. فهو يعطيه التصور الشامل والثابت ويمنح الحياة معنًى وهدفاً مما يدفعه تجاه أهدافه.

خلاصة:

يجب الانتباه إلى أن الرؤية العقلية لا تتجاهل دور المادة أو التجربة في العلوم والمعارف البشرية، وما قدمته من خدمات للإنسانية كما أن المعرفة العقلية الإيجابية لا تجعل من نفسها مصدراً حصرياً في فهم الكون، بل هي التي تجعل من المعرفة العقلية شرطاً أساسياً لكي تعبر المعرفة إلى رؤية أوسع وأكمل.

---

(١) مطهري، مرتضى: المصدر نفسه، ص ١١-١٢.

(٢) مطهري، مرتضى: المصدر نفسه، ص ١١-١٢.

ج - سلبيات الرؤية الكونية الفلسفية العقلية البديهية:

١- **غير جزئية:** وبالتالي لا تستطيع تزويدنا بالتفاصيل أو بالمعلومات الوفيرة حول جزئيات الكون.

٢- **احتكار المعرفة:** أن تكون الرؤية العقلية المصدر الوحيد ورفض ما دونها من المصادر والرؤى يجعل من الرؤية العقلية طرحاً غير مقبول.

فالعقل قادر على سبر غور الطريق المؤدية، والهدف الإنساني بشكل دقيق، فهي بحاجة إلى مصادر أخرى بالإضافة إلى العقل الذي يكون أساساً وشرطاً ضرورياً لكل رؤية.

حقائق موضوعية:

العقل قادر على أن ينتزع بعض الحقائق الموضوعية عن طريق الحواس، وهي مميزات أو خصائص الكون، فمنها ما هو مادي محسوس ومنها ما هو عقلي.

- **المحدودية**[١]: إنّ جميع الموجودات محددة لأنها تشغل جزءاً مكانياً وزمانياً، وهكذا تتفاوت الموجودات بين حيّز مكاني أكبر وفاصل زماني أطول، لكنّ الشيء المشترك بين هذه المحسوسات هو المحدودية في الإطار.

٢- **التغيير**[٢]: كما أنها متطورة ومتغيرة بأجمعها فليس هناك ثبات في الكائنات، لأنها إما في حالة نمو وتطور أو انحطاط وتدهور.

٣- **التبادل**: هناك علاقة تبادل وتأثر وتأثير بين الموجودات بعضها ببعض وترى عملية عطاء وأخذ للموجودات فيما بينها.

---

(١) مطهري، مرتضى: المصدر السابق، ص ٢٠ - ٢١.

(٢) مطهري، مرتضى: مصدر نفسه، ص ٢٠ - ٢١ .

٤- **التنوّع:** بين الموجودات تنوع كبير جداً لا يمكن إحصاؤه فحتى بين الواحد هناك تقسيمات عديدة، ففي نوع النجوم والكواكب ترى تقسيمات كثيرة. فبالإضافة إلى كونه متنوعاً إلّا أنّ هناك أنواعاً من التقدّم والتأخير والمعلولة والعلة والسببية والمسببة.

٥- **التراتبية:** فهناك أيضاً تراتبية بين الموجودات، فالإنسان في أعلى هذه التراتبية ومن ثم الحيوان فالنبات فالجماد.

٦- **الارتباط**[١]: هناك ارتباط واضح بين الموجودات واتصال مكاني أو زماني، والموجودات مشروطة بعضها بوجود الآخر ولا يمكن أن نرى موجوداً بلا شرط محرر من قيود الموجودات الأخرى بشكل مطلق.

٧- **الحاجة**[٢]: فكما أنها مرتبطة ومشروطة فهي أيضاً محتاجة إلى ظروف وملابسات معيّنة، وكل واحد من هذه الظروف بدوره يحتاج إلى مجموعة ظروف وملابسات أخرى. ولا يمكن العثور على موجود منطوٍ على نفسه، مستغنٍ عن غيره وقادر على البقاء مع افتراض فناء غيره (عدا الوجود المطلق)

---

(١) مطهري، مرتضى: المفهوم التوحيدي للعالم، بيروت - دار التيار الجديد، ١٩٨٥، ص ٢١ - ٢٢.

(٢) مطهري، مرتضى: المصدر نفسه، ص ٢٢.

٨- **النسبة**[١]: هذه الموجودات نسبية في أصل وجودها، ولا يمكن وصفها بالكبر أو بالقوة إلا قياساً بأشياء أخرى، فالكواكب أكبر بالنسبة لنا وأصغر بالنسبة لغيرها من الكواكب. إن كل وجود وكل كمال وكل علم وكل جمال وكل قدرة وعظمة وجلال، إنما يظهر حتى ننسبه إلى ما هو دونه، وبالإمكان أيضاً افتراض ما هو أسمى منه وكل الصفات المذكورة تنقلب إلى ضدها حين ننسب الموجود إلى ما فوقه أي ينقلب الوجود إلى فناء والكمال إلى نقص والجمال إلى قبح والعظمة إلى حقارة.

٩- **الهدفيه**: ولكلّ الموجودات غاية وهدف ما في أصل وجودها، وفي تكاملها.

---

(١) مطهري، مرتضى: المصدر نفسه، ص ٢٢ - ٢٣.

الشرائط اللازمة لتحصيل الفلسفة:

إن الدخول في عالم الفلسفة حيث العمق والدقة يتطلب شرائط معينة وهي:

١ـ **امتلاك التفكير العقلاني والذوق الفلسفي**[١]: إن ما يميّز التفكير الفلسفي هو اعتماده على قاعدة العقل والطريقة العقلانية والمنطقية التي لا تخالف البداهة والمسلمات، لذلك إن موضوع الفلسفة لا يحتاج إلى إثبات، والتصديق به عبارة عن أمر بديهي[٢] ولا بد لمن يمتلك هكذا تفكير أن يتمتع أيضاً بذوق فلسفي يسير بمنهجية منطقية للوصول إلى كشف الحقيقة.

٢ـ **التسلط الكافي على مباحث المنطق**[٣]: تعتبر مباحث المنطق ضمانة وعصمة للعقل من المغالطات والتهافت الفكري، لذا يجب أن يتحلى بها كل من يريد الخوض في عالم الفلسفة.

---

(١) كلبيكاني، علي رباني: إيضاح الحكمة في شرح بداية الحكمة، بيروت: دار الهادي، ط١، ١٩٩٠، ص ٢١.

(٢) طباطبائي، محمد حسين: دروس فلسفية في شرح بداية الحكمة، بيروت: دار الهادي، ط١، ١٩٩٠، ص ١١.

(٣) كلبيكاني، علي رباني: المصدر السابق، ص ٢١.

فوائد الفلسفة:

١- **تميز الأمور الواقعية عن الوهمية**[١]: حيث تناقش الفلسفة الحقائق وتبحث عن مباحث الوجود مما يبعدها عن الموهومات.

٢- **إثبات موضوع العلوم**[٢]: إن أي علم من العلوم بحاجة إلى الفلسفة في إثبات موضوع وجوده أو عدم وجوده.

٣- **إثبات القوانين العلمية**: إن جميع القوانين العلمية بحاجة إلى سلسلة من الأصول الكلية التي تستطيع الفلسفة فقط أن تثبت صحتها[٣].

٤- **معرفة المبادئ العالية للوجود وبدء المبادئ**: وهي معرفة العلة الأولى التي إليها تنتهي سلسلة الموجودات، وأسمائه الحسنى وصفاته العليا وهو الله عز اسمه[٤].

---

(١) كلبيكاني، علي رباني: المصدر السابق، ص ٤٢.
(٢) كلبيكاني، علي رباني: المصدر نفسه، ص ٤٣.
(٣) كلبيكاني، علي رباني: المصدر نفسه، ص ٤٣.
(٤) كلبيكاني، علي رباني: المصدر نفسه، ص ٤٤.

خلاصة:

إن الوجود لا ينحصر في هذه الظواهر المحدودة والمتغيرة والمحتاجة ولا بدّ للفكر والعقل من أن ينفذ إلى أعماق هذه المظاهر واستخلاص حقائق خلفها، والوصول إلى حقائق ثابتة ومطلقة وكاملة غير محتاجة ولا محدودة - وحاضرة في جميع الأمكنة والأزمنة.

الباب الثاني

الفصل الأول

الرؤية الكونية الدينية

الفصل الثاني

الرؤية الكونية العرفانية

الفصل الثالث

الرؤية الكونية العرفانية السليمة

الفصل الرابع

الطريق إلى الغاية

الفصل الخامس

سبل النجاة

خاتمة

الفصل الأول

الرؤية الكونية الدينية:

الرؤية الكونية الدينية غير الصحيحة

الرؤية الكونية الدينية الصحيحة

الرؤية الكونية الدينية المكتملة غير الإكتمالية

الرؤية الكونية الدينية المكتملة الإكتمالية

الرؤية الكونية الدينية:

وهذه الرؤية تعتمد الطابع القدسي (والقداسة تعني الاحترام الشديد حتى الخضوع والتسليم والانقياد) (القداسة هي المبدأ).

والبعد الروحي كما أنه يشترك مع الرؤية الفلسفية في الشمولية والكلية العمومية والثبات والطابع العملي، كما أنه يقسم إلى قسمين:

١ - الرؤية الكونية الدينية غير الصحيحة

٢ - الرؤية الكونية الدينية الصحيحة

١ ـ الرؤية الكونية الدينية غير الصحيحة:

ولن نخوض في البراهين والأدلّة على صحة الحكم أو عدم صحته. وإنّما الرّؤية الكونية غير الصحيحة هي التي لا تتخذ من العقل والدليل والبرهان سبيلاً ومصدراً لتفسير الكون وهدفه وبدايته ونهايته على الرغم من أنها تتمتع بالشمولية والكلية، إلا أن هذه الشمولية أو الكلية غير مبرهنة بالإضافة إلى أنها يجب أن تتمتع بالبديهيات، هنا يجب أن لا تنكر أيضاً البداهة التي لا تتفاوض مع البداهة العقلية بالإضافة إلى أن دورها ثانوي، أي يأتي بعد مقدمات مستند عليها لكي تصبح لهذه الرؤية قيمة معرفية (مستند عليها أي مبرهن عليها ويمكن الاعتماد عليها لأنّها تكون بديهية للذهن البشري).

وأيّ معرفة تفتقد الدليل على المصدر، لا يمكن الاعتماد عليها بأي نوع من أنواع التصور.

فالعودة إلى المعايير التي ينبغي للرؤية الكونية أن تستند إليها: نجد أن الوضوح وإزالة الغموض أيضاً في الطرح هو شرط أساسي

في الرؤية، لا أن يزيد هذا الطرح الرؤية إبهاماً وغموضاً، كما يجب أن يتوافق مع الميول الفطرية والرغبات الجسدية المعقولة، أي العطش فهو رغبة جسدية مصداقه الماء في الخارج، كما الجوع ومصداقه الأكل وهناك أيضاً رغبات روحية وجسدية معاً كالرغبة الجسدية العاطفية ومصداقها الجنس الآخر ولدى الإنسان حاجات ورغبات فكرية لا متناهية، كالعلم، والمعرفة والعاطفة والقدرة وهو الكمال الذي لا حدّ له ومصداقه الوجود المطلق، ولكن هذا الوجود يتمتع بمراتب متفاوتة بين الضعف والشدة، والإنسان ينشد الأعلى والأكمل في الوجود، لذا ينبغي على الطرح في الرؤية أن يرشد هذا الإنسان إلى هدفه اللامتناهي. ويؤمن له هذا الطريق ويعينه على تجاوز الصعوبات التي تعيقه كما أن الطرح يجب أن يكون عادلاً، أي يلاحظ الفرق بين الموجودات ويعطي كل ذي حق حقه وكل هذه الشروط إذا لم توجد في رؤية كونية دينية، اعتبرت هذه الرؤية غير صحيحة ولا تصلح لأن تكون رؤية أو تصوّراً لفهم الكون والإنسان.

٢ ـ الرؤية الكونية الدينية الصحيحة:

وهذه الرؤية هي التي تراعي المعايير الكاملة قبل أن تكون مبرهنة وبديهية وقابلة للاستدلال. ولها أرضية عقلية. ولها بعدٌ عمليٌّ كاملٌ وتعطي الحلول والغاية والطريق، كما أن طرحها منسجم بين أصولها النظرية وفروعها التطبيقية، وتتميز بالقوة والثبات والجاذبية والطاقة والحرارة والشوق والاندفاع والعدالة والحرية والصدق والشمولية والعمومية والهدفية والدقة والتشخيص والقيمة الفنية والتجدد والإحاطة والأصالة والبعد (الغيبي والروحي والمعرفي والتوحيدي والغائي) والوضوح والقداسة لكل مبادئه وطروحاته.

يمكن للرؤية الكونية الدينية الصحيحة أن تتزلزل إذا فقدت إحدى هذه المعايير ويجب أن يكون هناك استمرارية لهذا الطرح بالإضافة إلى العصمة في التنفيذ، وفي الطرح، لذلك تقسم هذه الرؤية الكونية الصحيحة غير المكتملة: وهي التي تفقد الاستمرارية في المحافظة على كل تلك المعايير وتفقد العصمة فيها وحدة المعايير.

هنا تفقد هذه الرؤية القيمة الكبرى في المحافظة على النهج والطرح لأنها فقدت أهم جزء، وهو العصمة والاستمرارية في الطرح مثاله: سفينة فقدت الربان وتصارع الأمواج العاتية في البحر رغم أنها مجهّزة بكافة الأجهزة التقنية والمحكمة في مواجهة الغرق. لكن الاستسلام لهذه الأمواج العاتية يمكن أن يلقي بها إما إلى الصخور التي تحطمها، وإما أن تضل هذه السفينة الطريق وتواصل توهها في البحر.

الرؤية الكونية الصحيحة المكتملة:

وتتميز هذه الرؤية بالحفاظ على الاستمرارية والعصمة في جميع أبعادها وتحافظ على المعايير، وتعتمد على المبادئ الأولية العلمية والعقلية، ولا تتجاهل القيم المعرفية بل تكون في حيثياتها، ومن الأسس الأصيلة لها، كما يجب أن تكون ملائمة للفطرة الإنسانية وتتفق مع النظام الكوني ويكون لمعيار العصمة عندها حقيقة وجودية عالية وكمالية، وتكون له درجة الإشراف على باقي الموجودات وحماية وحفظ هذا الطرح وهذا التصوّر ويؤسس لها عملياً ويطبقها وأن يكون لهذا العنصر القيادة والقضاء. يجب أن يتمتع هذا المنصب بالدليل والبرهان العقلي والسندي المرتكز والمتفق عليه.

وتقسم هذه الرؤية إلى قسمين أيضاً:

١- الرؤية الكونية الدينية الصحيحة المكتملة غير الإكتمالية.

٢ - الرؤية الكونية الدينية الصحيحة الإكتمالية.

الرؤية الكونية الدينية الصحيحة المكتملة غير الإكتمالية:

وهذه الرؤية لا تحفظ منصب القيادة في حال غاب الشخصية المعصومة، ولا تضمن تنفيذ أحكام الطرح الاجتماعي ولا توصل المجتمع إلى هدفه التكاملي وهذه الرؤية هنا تفقد كامل التنفيذ الكلي وتفقد عملية الرّبط بينها وبين الاستمرارية في الطرح المنبثق عن حقيقة أعلى. وتظهر في هذه الرؤية المحدودية والجزئية ضمن إطار العمل والتطبيق، وتواصل المسيرة، كما تفتقر إلى جميع أنواع القيادة والقضاء والفصل والتواصل للتكامل المطلوب.

الرؤية الكونية الدينية الصحيحة المكتملة الإكتمالية:

وهذه الرؤية تحفظ منصب القيادة والقضاء وتحافظ على الشمولية والكلية في التطبيق وتضمن للمجتمع جميع أحكام الطرح، ولا تخلّ بأي من شروط المعايير كما أنها تساعد على تحقيق الأهداف العلنية وتحافظ على العصمة بالدليل والبرهان والاستدلال العقلي والسندي المرتكز المعتمد، كما أنها تمنح الطرح التزاماً أدق وأكثر، وتستطيع الفصل وتحديد الأهم على المهم، كما أنها تحافظ على الاستمرارية في النهج والطرح الأصيل وتتماشى مع النظام الكوني المنظم، إذ أنها تتوافق بتراتبيتها بالنظام التراتبي للأشياء. ويكون المنصب القيادي نفسه لهذا الطرح هو المشرف على التطبيق ويكون المنصب عينه تحت هذا التطبيق ويكون هو الضمانة على تنفيذه بأحسن وجه، لأن هذا المنصب هو للأكثر معرفة وعدالة.

خلاصة الرؤية الكونية الدينية:

يتميّز الصحيح منها والمكتمل بأنه الوحيد القادر على تطبيق الطرح بأكمله، لأن الطرح الديني الصحيح شامل وكلي ومبرهن وبديهي، ويستوعب جميع الرؤى الإيجابية إضافة إلى مبدئه القدسي فهو يتمتع بجانب عبادي وهو إعطاء الحقيقة المنبثق منها التزامات وواجبات في جميع الأبعاد وهذا الطرح متيسّر للجميع ويعطي الحرية والعدالة والصدق في طرحه (لأنه مبرهن وبديهي) والغنى والقوة والجمال والكمال، وهو الطرح الوحيد الذي يوصل الإنسان إلى مبتغاه وغايته، ولا بدّ من المحافظة الدائمة على الجانب الغائي، لذلك كانت الاستمرارية عبر المكتمل والاكتمال بعده لحفظ الغائية المنشودة لجميع الموجودات.

الفصل الثاني

الرؤية الكونية العرفانيّة

الرؤية الكونية العرفانيّة:

في هذه الرؤية يكون المصدر الأول والأهم هو الشهود القلبي الذي يطال الحقائق. كلمة العرفان تأتي من المعرفة، والعارف هو الذي وصل إلى (المعرفة المطلقة، معرفة جوهر الأشياء). وليس فقط على المستوى النظري بل تحقق منها، وقد يطلق البعض على العرفان كلمة أخرى وهي التصوف. ولهذه الكلمة تفسير يوناني هو «الحكمة» Tisophia وقد يطلق على أهل التصوف (الذين كانوا يرتدون الصوف صيفاً وشتاءاً لكي يصلوا إلى تزكية النفس)، والعرفان قسمان: قسم نظري[1] وقسم عملي:

القسم النظري: يرتبط هذا القسم بتفسير الوجود[2] أي الرؤية الكونية (من معرفة الله والعالم والإنسان) وهو تماماً مثل الفلسفة في هذا الجانب الذي يريد أن يفسّر الوجود إلا أن أدوات تحقق المعرفة تختلف بين الفلسفة والعرفان. فالفلسفة ذروة معرفتها العقل، وكشف المبهمات والغموض عن ستار المعرفة بالعقل.

---

(١) مطهري، مرتضى: العرفان، بيروت. دار المحجة البيضاء - دار الرسول الأكرم، ط ١، ١٩٩٣، ص ١٣.

(٢) مطهري، مرتضى: المصدر نفسه، ص ١٧.

أما العرفان فما العقل فيه إلا مقدمة لمعرفة أشمل وأوسع، وهي المعرفة القلبية المطلقة التي تفنى في المطلق. فتتعرف بمعرفته وترى برؤيته.

القسم العملي: هو العلاقة الواجبة والمفروضة على الإنسان مع نفسه ومع العالم ومع الله[١]. (هو مجموعة الأوامر الظاهرية والباطنية التي تخرق الحجب لكي تصل إلى قمة التوحيد) ويسمى هذا القسم بالسير والسلوك وفيه كيفية بدء السالك، ومن أين؟ وإلى أين؟ وليس المقصود من أين، وفي أين، وإلى أين النظرية، بل العملية أي مجموعة الأوامر والنواهي التي يقوم بها السالك ليعبر المنازل والمراحل التي ينبغي أن يطويها بالترتيب، وما يجري عليه من أحوال في هذا السير.

وهو مثل علم الأخلاق (علم عملي مع اختلاف وفرق هو أن السير والسلوك مرتبط برؤية كونية وضمن مراحل ومنازل ومنهجية معينة ينبغي أن يراعيها وأن يلتزم بهذه الشروط والتراتبية للوصول إلى المنزل الأعلى أو الهدف المنشود، بالإضافة إلى العمق والبعد في العرفان والجانب الديناميكي في عناصره. أما في الأخلاق فيتميز بطابع الجمود والسكون الغالب على روحه ومفاهيمه عادة ما تكون واضحة ومعروفة ومحددة[٢]، بالإضافة إلى كونها جملة من المفاهيم غير المنهجة التي لا تراعي تراتبية ما.

(١) مطهري، مرتضى: المصدر نفسه، ص ١٣ - ١٤.

(٢) مطهري، مرتضى: المصدر نفسه، ص ١٦ - ١٧.

المنهج الإشراقي والعرفان:

ويتشابه العرفان مع المنهج الإشراقي إلا أنه يختلف قليلاً عنه، فالمنهج الإشراقي أيضاً لا يكتفي بالاستدلال والتفكرات العقلية للتحقيق في المسائل الكونية، بل إن السلوك القلبي والمجاهدات النفسية وتصفية النفس ضرورة لازمة لكشف الحقائق. وهو بمعنى إشراق النور[١]. وتسمى أيضاً بالحكمة الذوقية وتقوم هذه الرؤية على ثلاثة أُسس متينة:

١- الهدف النهائي والأعلى لكل الوجود والموجودات.

٢- الإنسان، الروح الإنسانية التي هي أشرف الكائنات.

٣- الطريق الذي يوصل هذه الروح إلى هدفها.

١ - الهدف:

الروح كانت قد رأت الجمال المطلق أو الكمال الكامل الذي هو

---

(١) **مطهري**، مرتضى: الفلسفة، بيروت. دار التيار الجديد، ط ١ ١٩٩٣، ص ٣٥ - ٣٦.

أعم من الجمال قبل المجيء إلى الدنيا، ولأنها ترى الكامل المحدود في هذه الدنيا فإنّها تتذكر الكمال المطلق فيصيبها الغم والفراق والبعد والحرمان. وتتولد حالة العشق بشكل تصاعدي وخميرته الإدراك المعرفي والإشراقي والحصول على الحياة الأبدية[١].

٢ - الروح الإنسانية:

إن الأرواح خلقت ووجدت قبل تعلقها بالأبدان في عالم أرفع وأعلى وأكمل وهو عالم المثل، وبعد خلق البدن تتعلق الرّوح به وتستقر فيه[٢].

٣ - الطريق:

النتيجة من المقدمتين السابقتين هو أن كل ما نعلمه ونشاهده في هذا العالم هو تذكر لما شاهدناه، نظراً لأنها كانت في عالم أرفع وأعلى ولأنه حقيقة الأشياء في مثالها الأعلى فإنّ النفس كانت عالمة بحقيقة الأشياء قبل أن تأتي إلى عالم الدّنيا وتتعلق به.

وهذا التعلق للروح بالبدن أدى إلى نسيان تلك الحقائق وأصبح البدن والدنيا حجابين على أرواحنا يمنعان انعكاس النور

---

(١) مطهري، مرتضى: المصدر نفسه، ص ٤٢.

(٢) مطهري، مرتضى: المصدر نفسه، ص ٤٤.

والحقيقة في الروح، وعلى أثر البحث والمنهج العقلي وهذا العشق والمجاهدة والسير نحوه فإنّ الحجاب يزول ويشّع النور والحقيقة في الروح[١].

إلا أن الإشراق وإن كان قريباً من العرفان فهو يختلف معه في أن الإشراق يكشف الحقيقة، بينما العرفان هو التحقق بالحقيقة. فالإشراق يُكتفى بالجانب النظري فيه وبشكل أقوى من التطبيق، وأما العرفان فإنّه جامع للجانب النظري والعملي معاً.

ويطرح العرفان برنامجاً عملياً يسمى بالسير والسلوك. وفيه يعرف السالك من أين البداية وكيف يتجه وإلى أين نهاية المطاف وما هي المنازل والمراحل التي يجب أن يسلكها بالترتيب. ولذلك فإنّ السالك بحاجة إلى مرشد له يكون دليله في هذا السفر. وهذا المرشد لا بدّ من أن يكون قد قطع هذا الطريق واطّلع على أسراره ويشترط أن تكون عملية السفر تحت رعاية الإنسان الكامل بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وهذا القسم العملي يدور حول (ما ينبغي أن يكون).

---

(١) مطهري، مرتضى: المصدر نفسه، ص ٤٥ - ٤٦.

أقسام الرؤية العرفانيّة:

لكن قبل الشروع في البحث لا بد من تقسيم الرؤية الكونية العرفانية إلى نوعين:

١- **رؤية كونية عرفانيّة شاذة:** (وتسمى عرفانيّاً تسامحاً) والمقصود الرؤية الباطنية لتفسير الأشياء.

٢- **رؤية كونية عرفانيّة سليمة**

١ - الرؤية الكونية العرفانيّة الشاذة:

هي الرؤية القائمة على الشهود والكشف عبر الطريق العملي أياً كان من منهجه ومنبعه. أي ليس هناك معيار وضوابط تضبط هذه الرؤية، ويمكن أيضاً تقسيم هذه الرؤية إلى ثلاثة أنواع:

أ - رؤية كونية عرفانيّة شاذة نظرياً.

ب - رؤية كونية عرفانيّة شاذة عملياً.

ج - رؤية كونية عرفانيّة شاذة نظرياً وعملياً.

❖ **المقصود بالرؤية العرفانيّة هنا:** هي الرؤية الباطنية لتفسير الأشياء ولا يقصد بها مصطلح الوصول للحقيقة والتحقق بها كما في الرؤية العرفانيّة السليمة.

أ - **في الجانب النظري:** الجانب النظري هنا لا يمت بصلة إلى الجانب العملي، بل تكون القاعدة الفكرية قائمة على أساس من دون أن يكون هناك إلزام تجاه الأصل الإيديولوجي، كأن يتم تفسير الكون بطريقة شاذة عن البديهيات العقلية ويدّعي أصحابها بأن لهذه الرؤية واقعاً حقيقيّاً دون أي إثبات وإنما تكون الفرضية تسويلات وأوهام أطلقها أشخاص يدّعون الروحانية والتفسير الباطني للأشياء. وقد لا يلزم هذا الجانب بأي عمل تجاه هذه الأفكار. وليس هناك أي صلة ما بين الإحساس الداخلي للأشخاص والواقع الخارجي أو إثباته بالدليل والعقل.

ب - **الرؤية الكونية العرفانيّة الشاذة عملياً:** وينفرد الجانب العملي في تفسير الكون والكشف عن الحقيقة دون أي معيار إيديولوجي، بل تكون هي الجانب العملي مثل الرياضة القلبية والمجاهدة النفسية ويمكن هذا الجانب أن يأخذ بعداً تقليدياً في بعض البلدان التي تعاني من هكذا أنواع من الثقافة وقد تظهر أيضاً هذه الممارسات في العديد من المدارس أو المذاهب والأديان منها:

١- **الأديان غير الصحيحة:** تظهر هذه الممارسات في الأديان غير الصحيحة بحجة تزكية النفس وتطهيرها وعادة تقوم هذه الممارسات بشكل خاطئ وشاذ كالحرمان من الزواج أو تقوم بتعذيب النفس وليس بتهذيبها أو العيش في الكهوف والمقابر وينبع هذا الشذوذ من القاعدة الإيديولوجية الخاطئة.

٢- **الأديان الصحيحة غير المكتملة:** وقد تظهر في الديانة الصحيحة الناقصة المنهج غير المعصومة عن الخطأ، وتظهر البدع والأخطاء لعدم وجود ضوابط وميزان لتلك الظواهر، ويكون هذا الخلل ناتجاً عن عدم اكتمال الرؤية الصحيحة في الدين وفقدان المرشد الكامل المعصوم الذي هو شرط في هذا السلوك.

٣- **الديانة الصحيحة المكتملة غير الاكتمالية:** حتى لو كانت الديانة صحيحة ومكتملة ولكنّها معطلة الأجهزة والأُسس والقوانين، فسوف يكون التوجّه نحو الهدف عشوائياً، وغير مبني على أوامر ونواهٍ عامة أو خاصة. وعدم الإيمان بضرورة التوجه نحو الهدف بكامل الأبعاد أي أن يكون المجتمع محكوماً لقيادة أهلية ومعصومة ومسددة. عدم الإيمان بهذا المبدأ الاكتمالي يوجب البعد والانحراف في السير والسلوك.

٤- **الديانة الصحيحة المكتملة الاكتمالية:** يمكن أن يكون

هناك شذوذ وانحراف في السير والسلوك، أو في المجاهدة القلبية في الدين الصحيح ذي القيادة المعصومة والمستمرة في التكامل وتلعب عدة عوامل في هذا الانحراف:

١- عدم الإخلاص.

٢- الضعف العقائدي.

٣- عدم المعرفة بشروط السير والسلوك.

٤- عدم التقيد بشروط السير والسلوك.

٥- عدم إكمال السير والسلوك.

٦- عدم الامتثال الأوامر والنواهي الشرعية (والالتزام الكامل).

ج - **الرؤية الكونية العرفانيّة الشاذة:** (نظرياً وعملياً) وهذه أنواع من الرؤى منتشرة في البلاد ذات الطابع الديني الروحي، كالديانات الشرقية القديمة (الصين - الهند - فارس...) وهي تطرح نظرة خاصة عن الوجود بشكل عام، ويغلب عليها جانب روحي وتأويلي باطني، وكما أنّها تطرح برنامجاً عملياً للوصول إلى حقيقة الوجود، كالتوجه إلى حقيقة وتجلي حيوان ما لأنه الحيوان

المقدّس. أو أن يكون صنماً ما يجسد حقيقة إله تجسد لكي يهب الحقيقة للزّهّاد الذين يهبون حياتهم له في الجبال والكثير من الأمثلة.

كل أنواع وتقسيمات الرؤية العرفانية الشاذة هي غير مقبولة في بعض جوانبها لمخالفتها البديهيات العقلية أو لعدم استنادها على دليل أو لعدم اكتمالها أو لعبثيتها أو لعدم وضوح الرؤية وعدم التوافق مع الفطرة الأصيلة في الإنسان، ومنها حرمان النفس من متطلباتها الأصيلة والوقوع في التفريط أو الإفراط، فالتفريط في المأكل بشكل يوصل إلى الإعياء والوهن والضعف، أو في الملبس بشكل يوصل إلى التحقير والقذارة والنجاسة، ومن الرهبنة في الزواج وهو خلاف الحاجات الأصيلة في الإنسان. فللإنسان حاجات أصيلة في صميم أعماقه كأن تكون لديه رغبة تجاه الجنس الآخر ومصداقه تحقق الجنس الآخر في الخارج، وهذا الشعور هو شعور أصيل يشعر به جميع البشر ويمكن إخضاعه للعقل، ولا تدميره وقتله كلياً من النفس، لأنه يؤدي إلى أمراض نفسية وتدهور اجتماعي، وإلى عقد وأمراض اجتماعية وحرمان التناسل الذي هو جزء أساس في استمرارية الحياة البشرية، أو العزلة والانعزال وهو رفض المجتمع والاختلاط به وهجر كل شيء واللجوء إلى الطبيعة وهذه العزلة تدوم معهم إلى آخر أيام حياتهم، وهي

غير العزلة الإيجابية التي تساعد الإنسان على بناء نفسه وتنظيم أفكاره، وإعادة صفاء نفسه، إنما هي عزلة سلبية بما تحمله من رفض العلاقات الاجتماعية والتواصل الأسري والاجتماعي والتعاون الجماعي والتكامل بين سائر أنواع البشر.

الفصل الثالث

الرؤية الكونية العرفانية السليمة

الرؤية الكونية العرفانية السليمة:

يشترط لكي تكون الرؤية العرفانية سليمة أن تكون منطلقة من الديانة الصحيحة والمكتملة وأن لا تتعارض مع الإكتمالية. وكما ذكرنا أن مصدر المعرفة في هذه الرؤية يكون الشهود القلبي ولكي نوضح أكثر يجب أن نفهم معنى المعرفة:

المعرفة هي انكشاف الحقيقة أمام العقل وتستحيل المعرفة بدون هذا الكشف ولا يمكن أن يكون هناك أوضح وأجلى من العلم وانكشافه لدى العقل وتقسم هذه المعرفة إلى قسمين:

أ- معرفة حصولية.

ب- معرفة حضورية.

أ- **المعرفة الحصولية:** (المعرفة غير المباشرة): هي كل أنواع المعرفة الخارجية والتي تحصل عندي من خلال واسطة، كأن أسمع خبراً أو أرى مشهداً أو ألمسُ شيئاً أو أتذوّقه، فالمعرفة هنا حصلت عليها من خلال أو بواسطة الحس، السمع أو البصر أو اللمس أو التذوق أو الشم (ويمكن الخطأ فيها) أو وجود مسافة بين العالم والمعلوم (ويقسم إلى قسمين البديهي والنظري.

١- **البديهي:** هو الإدراك الذي لا يتطلب تفكيراً.

٢-**النظري:** وهو غير البديهي الذي يتطلب تفكيراً.

ب - **المعرفة الحضورية:** (المعرفة المباشرة): وهي أن تكون المعرفة حاضرةً عند ذات العالم ومتحدة ولا تحصل لديه من خلال واسطة، ولا تكون خارجة عنه وكمثال على هذه المعرفة: معرفتي بنفسي أو معرفتي بجوعي وعطشي ورغبتي فهذه المعرفة ليست بحاجةٍ إلى وسيط بين المعلوم والعالم. ويعرف العقلاء العلم بأنه اتّحاد العالم بالمعلوم فلكي تكون هذه المعرفة حقيقية يجب أن تكون هذه المعرفة معرفة كاملة من جميع الجوانب وليس فقط معرفة العوارض الخارجية للأشياء، أو أن تكون تلك المعرفة نسبية، ويجب أن تكون تلك المعرفة يقينية. (وهي غير قابلة للخطأ لعدم وجود مسافة بين العالم والمعلوم)

أمّا الحضوري فيقسم إلى قسمين:

- **حضوري نسبي.**
- **حضوري مطلق.**

حضوري نسبي: المعرفة التي لا تطال الوجود بالمطلق، وهي كمعرفتي بنفسي أو بهذه الطاولة أو بهذه المساحة فقط من الوجود

حضوري مطلق: هو المعرفة المطلقة التي تتحد بكل ذرات الوجود، ولا تقتصر على معرفة محددة منه.

كما يجب أيضاً أن نعرف أقسام اليقين الذي يقسم إلى ثلاثة أنواع:

١- علم اليقين.

٢- عين اليقين.

٣- حق اليقين.

ونعطي أمثلة لكي نوضح هذه التقسيمات:

١) إذا رأينا الدخان يتصاعد من بعيد علمنا أن هناك ناراً هي التي سبّبت هذا الدخان وتسمى هذه المعرفة علم اليقين.

٢) أما إذا اقتربنا من الدخان ووجدنا أن النار هي السبب في هذا الدخان فتسمّى هذه المعرفة عين اليقين.

٣) وإذا وضعنا يدنا في النار وتحسسّنا النار تسمّى هذه المعرفة حق اليقين.

وتقسم المعرفة أيضاً إلى عدة أقسام منها:

١- المعرفة الحسية.

٢- المعرفة الذهنية.

٣- المعرفة العقلية.

٤- المعرفة القلبية.

١- **المعرفة الحسية:** هي التي تتعاطى مع العوارض الخارجية للأشياء عبر الحواس الخمس، (السمع - البصر - الذوق - الشم - اللمس) ونطاق هذه المعرفة ضيق جداً لأنه لا يستطيع الانتشار مع الكثرات للاتحاد بها.

٢- **المعرفة الذهنية:** وهي أوسع نطاقاً من المعرفة الحسية، فهي تتعاطى مع الصور المنتزعة من الأشياء، وهي أقوى من الحس فإنّها تسجل ما ينساه، ولديها السلطة على الصور الحسية المنتزعة، بحيث يمكنها أن تغّير أبعاده ومساحته وإطاره كيفما تشاء.

٣- **المعرفة العقلية:** وهي أوسع نطاقاً من المعرفة الذهنية فهي

التي توسع إطار الذهن وتتحكم فيه وهي التي تعطي الأشكال وتتحكم بها، وهي التي تقوم بعملية الربط والفصل وعملياته تُسمى بالتحليل والاستنتاج ويكون دوره في قدح الذهن واستخلاص النتائج واستقراؤها وهي تستوعب المعرفتين الذهنية والحسية معاً.

٤- **المعرفة القلبية:** وهنا لا يوجد إطار بتاتاً، فهذه المعرفة هي معرفة مطلقة تستوعب جميع أنواع المعارف السابقة ولا تنحصر في شكل أو حدود وهي محيطة بكل ما يدخل فيها من معرفة إلى المعرفة المطلقة، فإنّها تسعها أي تذوب فيها ولا يمكن تشبيه هذه العملية لأن في التشبيه محدودية. وتسمّى هذه المعرفة بالمعرفة الشهودية القلبية لأنها تكون معرفة مطلقة للشيء أي أن يعرف حقائق الأشياء، ولا يمكن معرفة حقيقة الشيء إلا إذا كانت معرفتي بهذا الشيء مطلقة.

إذاً فالمعرفة الشهودية هي التي تكون حضورية قلبية مطلقة ويقينية حقةً.

والركيزة الأساسية لهذا النهج أي النهج العرفاني السليم، هو الحب لأنّ الدافع الأساسي للقلب هو الحب، والدليل عليه هو أن القلب له وعاء مطلق ويتعاطى مع المطلق وبما أن المطلق لا حد له فإنّ الاشتياق إليه مطلق والمطلق بما أنه موجود فلا يشوبه العدم أي أنه وجود مطلق، والوجود هو شعور وحياة والشعور والحياة هما علم وقدرة وبالتالي هما مشيئة وبما أن الوجود مطلق فهو مطلق العلم والقدرة والحياة، أي مطلق الكمال لاستحواذ هذه الصفات على جميع أركان الكمال، وبما أن الاشتياق إلى الكمال المطلق نابع من احتياج وبما أن

هذا الاحتياج مطلق، فتصبح المعادلة فقراً مطلقاً أمام غنى (أو كمال) مطلق والفقر والاحتياج يحب الكمال ويريد التحقق به ليهرب من النقص والاحتياج. وهذا الحب يكون حباً مطلقاً، والحب هو الدافع للتحقق بهذا الكمال، لذلك يكون الدافع والركيزة الأساسية المنطلقة من القلب هو الحب، والحب هو التحقق.

وكما ذكرنا فإن هناك ثلاث أسس فيه يقوم عليها العرفان:

١ - الهدف أو الغاية.

٢- النفس (الإنسان).

٣- الطريق.

والهدف من الأسس هو إنتشال النفس الإنسانية من سجن عالم الطبيعة (أسفل السافلين) إلى مقام القرب الإلهي (عند الله) (مقام العندية) أعلى العليين وبلوغ السعادة المطلقة ومطلق السعادة، والكمال المطلق، ومطلق الكمال.

ويعبر عنه بمثلث السعادة اللامتناهية

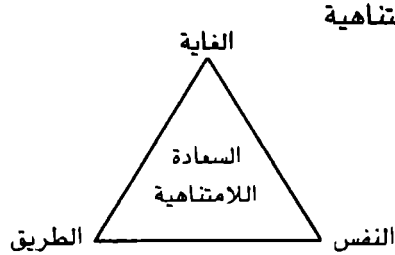

ولكي نعرف الطريق المؤدي بهذه النفس إلى غايتها، يجب فهم الارتباط الحاصل ما بين هذه النفس والهدف الذي هو الله المتعالي سبحانه.

والسؤال هنا: كيف أستدل بأن الغاية قد حددت بالله سبحانه وتعالى؟ وقد ذكرنا بأن الرؤية العرفانية السليمة يجب أن تكون قائمة على الرؤية الدينية الصحيحة التي تعتمد على الاستدلال العقلي في الاعتقاد بأيّ أصل من الأصول.

الفطرة:

كما أن الفطرة الإنسانية التي هي الجبلة، التركيبة الأساسية للإنسان ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[1].

❖ **فطرة الله:** تُشير إلى أن هذه الفطرة ذاتية في الإنسان من صنع الله ولم يكتسبها الإنسان بالسعي.

❖ **فطر الناس عليها:** تُشير إلى شمولية الفطرة بين سائر أبناء البشر وليس هناك فرق بين فطرة الصيني الذي يعيش في عمق التيبت، أو العربي الذي يعيش في صحراء الحجاز، أو الأوروبي الذي يعيش في عمق الحضارة الغربية.

❖ **ولا تبديل لخلق الله:** ثابتة لا تتغير بتغير الزمان أو المكان، فالفطرة هي واحدة ثابتة من يوم آدم حتى عصرنا وإلى فناء البشرية لا تتغير، فحب الخير أو الكمال واحد بين سائر البشر ولا تتغير مع مر العصور، وكذلك الهرب من النقص والعجز والفقر والمرض والقبح هو

---

(١) سورة: الروم، الآية: ٣٠.

من الأمور الفطرية التي لا تتغير.

❖ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون:** هذا الجزء من الآية يشير إلى أن الفطرة متفاوتة بين سائر البشر ففئة لا تعلم وهناك درجات متفاوتة بينهما ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين وأوتوا العلم درجات﴾[1].

فالعلم متفاوت في الدرجات بين فطرة وفطرة أخرى وهو ناتج عن حجب هذه الفطرة عن مطلبها وغايتها.

هذه الفطرة تطلب الكمال وليس الكمال فحسب، بل تطلب الكمال المطلق بل ومطلق الكمال، وتهرب وتفر وتنفر من النقص المطلق ومطلق النقص. فإذا ما سألت سائر أبناء البشر بلسان الفطرة عما يطلبونه ويبذلون في طلبه الأنفس والأرواح لأجابوا بنفحة قدسية واحدة طلبنا واحد ألا وهو الكمال المطلق (سبحانه وتعالى). غير أن التفاوت في هذه الفطرة الناتج عن الاختيار الخاطئ والناشئ من حب النفس الأمّارة بالسوء ورؤية الأنا التي تحجب جمال الكمال المطلق، هذا التفاوت يجعل هناك انحرافاً في تصوير الكمال المطلق والتوجه إليه، فقد نرى أشخاصاً يسعون وراء التسلط والمنصب، باذلين المهج تارة وماء الوجه تارة أخرى وهم يرون أنّ هذا هو الكمال المنشود، ولكن الأولياء الذين استطاعوا أن يزكّوا أنفسهم يرون الكمال المطلق هو الباري جل وعلا، ويتوجهون إليه وتلتهب قلوبهم وتشتعل من نار

---

(١) سورة: المجادلة، الآية: ١١.

العشق التي جذبت موسى الكليم إلى مقام التجلي في الوادي المقدس طوى، حيث تتحطم في الوادي جبال الأنفس وتخضع النفس كخضوع الوادي للقمم الشاهقة وللسماء والنجوم فيظهر جمال الوادي باتصاله بكعب الجبال، وهو خاضع ولا يحسبن نفسه الجبل ولا أطراف السموات إذاً الفطرة تطلب الكمال المطلق. والكمال المطلق هو واحد لا يتجزأ لأن كل كثير ومركب ناقص فلو احتاج كل جزء لجزئه الآخر لانتفت صفة الكمال، وكذلك الإطلاق لأن المحدودية نقص. فالكمال المطلق واحد وفيه جميع الصفات الكمالية وهو الله سبحانه وتعالى، لذلك هذه الفطرة مجبولة على حب الله وعلى الاتجاه والرغبة والميل إليه، وتدفع هذا الإنسان لكي يبحث عن الله ويخضع ويخشع أمامه وهذه الرغبة لا تشبع إلا بعبادة الكمال المطلق والخضوع له ومنتهى هذه الرغبة والميل والعبادة والعشق أن يفنى العاشق أمام معشوقه.

❖ علاقة الله بجميع الموجودات:

في الحديث القدسي أن النبي موسى سأل الله: «يا رب أبعيد أنت مني فأناديك أم قريب فأناجيك؟»[1]. قال: يا موسى أنا جليس من ذكرني.

والسؤال هنا عن مدى العلاقة بين العبد وربه وما هو مقدار المسافة أو ما طبيعة هذا الارتباط ومن الطبيعي أن يسأل الإنسان عن ربه ليتوجه إليه فيأتي الجواب القرآني:

---

(١) الأميني، محسن: منتخب الأحاديث القدسية، طهران، ط١، ١٩٩٠، ص ١٢.

﴿هو الذي في السماء إله وفي الأرض إله﴾[١].

فيدرك الإنسان أن الله ليس في السماء فقط كما يعتقد الكثير من أصحاب الأديان الأخرى بل هو في الأرض أيضاً وليس هذا فقط بل: ﴿أينما تولوا فثم وجه الله﴾[٢].

فهو في كل الاتجاهات وكل الأمكنة بل: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾[٣].

مع الإنسان أينما كان ملازماً له بل ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾[٤].

أقرب إليه من حياته بل ﴿هو أقرب إليكم من أنفسكم﴾[٥] بل أقرب من النفس الإنسانية بل تتعدى النفس الإنسانية لتتصل بكل الوجود ﴿ولا يعزب عنه مثقال ذرة﴾[٦].

وتسع كل الوجود ﴿ورحمتي التي وسعت كل شيء﴾[٧].

فنحن هنا نتحدث عن الله الذي هو الكمال المطلق والكمال المطلق يمثل السعادة القصوى اللامتناهية للإنسان لأن الكمال المطلق مساو للسعادة المطلقة عند الإنسان لأنه به يروي عطشه المطلق وسعيه المطلق في تحصيل الكمال والهرب من الفقر والنقص.

---

(١) سورة: الزخرف، الآية: ٨٤.
(٢) سورة: البقرة، الآية: ١١٥.
(٣) سورة: الحديد، الآية: ٤.
(٤) سورة: ق، الآية: ١٦.
(٥) سورة: الواقعة، الآية: ٨٥.
(٦) سورة: سبأ، الآية: ٣.
(٧) سورة: الأعراف، الآية: ١٥٦.

فالسعادة المطلقة كم تبعد عن هذا الإنسان؟

هي ملازمة لكل ذرات الوجود وأقرب إليه من نفسه وحيث ولى وجهه وحيثما كان.

الفيض الإلهي:

من صفات الكمال المطلق الإفاضة في الوجود والإفاضة هي حالة العطاء والخلق والرزق والبسط والتدبير والقسط والحكم والنفخ والنفح والتجلي والقهر والغضب والجمال والجلال وسائر الصفات الإلهية.

وهذا الفيض لا يحرمه الله ولا يمنعه عن الوجود بل هو في أركان كل شيء «**أسمائك التي ملأت أركان كل شيء**»[١]، ورحمته وسعت كل شيء ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾[٢]، ومن الصفات الإلهية الفيض فمحال عقلاً أن يحجب الله فيضه عن الوجود.

أولاً: لافتقار الموجودات إليه ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد﴾[٣].

ثانياً - عدله: إذ لا يمكن لله أن يظلم هذا الإنسان، ويجعل في داخله فطرة تنشد الكمال المطلق وهو غير متوفر لها، أو أن لا يفيض عليها الكمال أو يجعلها تتصل به.

ثالثاً - حكمته وعلمه: محال في جنب الله أن يكون عابثاً أو جاهلاً

---

(١) القمي، عباس: مفاتيح الجنان، دعاء كميل، بيروت: دار الأعلمي، ص ١٠٠.

(٢) سورة: إبراهيم، الآية: ٣٤.

(٣) سورة: فاطر، الآية: ١٥.

﴿إلا من رحم ربك لذلك خلقكم﴾[١]. الغاية التي جعلت للخلق، تدلّ على الحكمة في إيجاد هذا المخلوق لغاية موجوده.

رابعاً - كرمه وفضله: ﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾[٢]، سعة الكرم التي تطال كل شيء ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾[٣]، إفاضة الرحمة على جميع الأشياء ﴿بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾[٤].

فكرمه واسع لا يحجبه عن الخلق، بل هو كريم منان على خلقه.

ما هو مقدار هذا الفيض الإلهي على الوجود وعلى كل الموجودات يقول عزّ وجل: ﴿وما كان عطاء ربك محظورا﴾[٥]، أي ليس هناك مانع أو حاجز يمنع فيض الله أي هو فيض مطلق وهنا يطرح سؤال عن ماهية فيض الله، أي، ماذا يفيض الله وما هو هذا الفيض المطلق؟

وقد أشير إلى أن الكمال المطلق هو مع كل المخلوقات ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾[٦]، والمع هنا هي المعية الإلهية الملازمة لجميع الأشياء، فالله مع جميع الأشياء أي جميع صفاته التي هي عين ذاته مع كل الأشياء، بل هناك قيومية بالله للأشياء أي الأشياء قائمة بالله. لأن الحياة ترى في الأشياء والقيومية هي صفة مبالغة من القيام وهي

---

(١) سورة: هود، الآية: ١١٩.
(٢) سورة: طه، الآية: ٥٠.
(٣) سورة: الأعراف: الآية: ١٥٦.
(٤) سورة: المائدة، الآية: ٦٤.
(٥) سورة: الإسراء، الآية: ٢٠.
(٦) سورة الحديد، الآية ٤.

إفاضة القيام في الموجودات. فالله حاضر لدى الأشياء بشهوده عليها ﴿والله على كل شيء شهيد﴾[١]، والشهود هي حالة الحضور لا الغياب. وهذا الحضور هو مطلق لإحاطته بها.

﴿والله بكل شيء محيط﴾[٢]، ﴿والله بكل شيء عليم﴾[٣].

أما الآيات المتعلقة بالقرب والبعد عن الله فهي من باب المجاز والاستعارة ، لأن ساحته المقدسة تنزه عن القرب والبعد الحسيين والمعنويين، إذ يستلزم ذاك القرب والبعد الحسيان والمعنويان نوع من التحديد والتشبيه. والحق المتعالي منزه عن ذلك بل إن حضور قاطبة الموجودات أمام وجوده المقدس حضور تعلقي وإحاطة ذاته المتعالية لكل دقائق الكائنات وسلسلة الموجودات إحاطة قيومية، وهذا الحضور وهذه الإحاطة يختلفان عن الحضور الحي والمعنوي وعن الإحاطة الظاهرية والباطنية[٤].

حقيقة الفيض الإلهي:

يعبر عن الفيض الإلهي بأنه كامل الفيض، وهذا الفيض لا يعود بغاية له جلّ وعلا لخلوه من النقص والاحتياج والفقر، وهو المالك لكل شيء وهو الغني المطلق وذاته عين الكمال.

ولكن هو عبارة عن سريان فيضه العام في رحمانية الوجود، وفيضه

---

(١) سورة: الحج، الآية: ١٧.

(٢) سورة: النساء، الآية: ١٢٦.

(٣) سورة: النساء، الآية: ١٧٦.

(٤) الخميني، روح الله: الأربعون حديثاً، بيروت. دار التعارف، ط ٤، ١٩٩٢، ص ٢٢٢.

الخاص في رحيمية الوجود أي تدفق صفاته الكاملة المطلقة في عوالم الظهور الإلهي في القابليات والقدرات والماهيات والمؤهلات، وهذا التدفق بمعنى ملء أركان الوجود بالأسماء الإلهية التي أحاطت وملأت أركان كل شيء. والفيض الرحيمي هو تفجر علاقة الجذب والاشتياق والانشداد المودعة في القابليات مع سريان الفيض الرحماني لمبدأ عالم الوجود.

هذا الفيض مطلق ولا يسعه إلا الإطلاق لذا فهو جامع للكمال في مراتبه وهو متصل بجميع ذرات عالم الوجود لصدوره من الله (الكمال المطلق) فهذا الفيض المطلق متصل من أدنى مراتب الهيولى إلى أعلى ذروة عالم الجبروت، فحبة الخردل لها علاقة بهذا الفيض بوجهين:

١ - وجه يعطيها الوجود والبقاء والماهية.

٢ - ووجه يشدها نحو كمالها وتطورها.

ولكي يدرس الموضوع بشكل أوفى يجب ملاحظة طرفي الموضوع الفيض والمُفاض عليه: فالفيض هو الفيض المطلق والمفاض عليه في المثال هو حبة الخردل، وهذه الحبة لا يمكنها أن تسع من هذا الإطلاق أي بمقدار حقيقتها وقدرتها وقابليتها لاستيعاب هذا الفيض فهي لذلك لا تأخذ من هذا الفيض إلا مقدارها ووسعها لذلك لا تصل إلى الإطلاق بهذه الكيفية حقيقة الإنسان:

❖ **في الحديث القدسي:** «يا ابن آدم خلقت الخلق لأجلك وخلقتك لأجلي فهل تفرُ مني»[1]، إن الإنسان هو المظهر الأتم لصفات الله

(١) الخميني، روح الله: الأربعون حديثاً، بيروت. دار التعارف، ط ٤، ١٩٩٢، ص ٦٧.

وأسمائه من بين جميع المخلوقات والموجودات وقد جعله الله خليفة في عوالم الوجود ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾[١].

فكلمة إني تعود إلى مصدر القائل من باب التعظيم بأن الكمال المطلق هو الجاعل أي ينبثق الفعل عن حكمة مطلقة وعلم مطلق وخبرة وقدرة مطلقتين.

الأرض ليست مقتصرة على عالم الدنيا لأن الأرض هي كل مكان يستقر فيه أي أنّ الخلافة الإلهية للإنسان شاملة ومطلقة لجميع العوالم اللامتناهية.

خليفة: من خلف الشيء وهو الشيء الذي يأتي بعده، والله يخلف الإطلاق أي صفاته وأسماءه لاشتمال الأسماء في الوجود، فالإنسان هو خليفة هذه الصفات المطلقة وقد علمه الأسماء كلها ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾[٢]، والعلم هو إحاطة العالم بمعلومه وبما أن هذا العلم محال فيه الإحاطة لأنه مطلق (أي أسماء الله مطلقة لا يمكن إحاطتها) مما يدل على أن الإنسان له سعة هذه الأسماء، أي له قابلية مطلقة لخلافة هذه الأسماء والصفات المطلقة وقد أشير في الحديث القدسي إلى هذا المعنى: «لا تسعني أرضي ولا سمائي بل يسعني قلب عبدي المؤمن»[٣].

وهنا يفهم أن حقيقة الإنسان ليست هذه الحقيقة المادية، بل إنها

---

(١) سورة: البقرة، الآية: ٣٠.

(٢) سورة: البقرة، الآية: ٣١.

(٣) الخميني، روح الله: الأربعون حديثاً، بيروت - دار التعارف، ط٤، ١٩٩٢، ص ٦٧ .

جزء من حقائق أعلى مطلقة يمكنها أن تسع الإطلاق وأن الإنسان هو من روح الله ﴿ونفخت فيه من روحي﴾[١].

وهذه الروح هي بيت الإطلاق إشارة إلى الحديث القدسي.

والآية القرآنية: ﴿واصطنعتك لنفسي﴾[٢] تشير إلى حقيقة وجود الإنسان وهدفه ﴿خلقتك لأجلي﴾[٣] الحديث القدسي. الكاف تشير إلى الإنسان في الآية وفي الحديث والياء تشير إلى الهدف في كلمة لنفسي ولأجلي، واللام تُشير إلى الطريق المؤدي للهدف، فهدف الإنسان هو الله فهل هذا الإنسان مزود بحقيقة الإطلاق لكي يصل إلى الإطلاق ﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾[٤].

فالله قد زوّد جميع الأشياء بالخلق (الفيض الرحماني)

والهداية (الفيض الرحيمي) أعطى المخلوقات الوجود وكمال الوجود. لكن أي إطلاق هذا الذي أُعطيَ الإنسان، أو الذي زُرع يسعه للإطلاق ويكون بيتاً له. فكيف للإطلاق أن يكون له كفوٌ أو ند أو شبيه؟. وما هو الإطلاق الذي يمكن أن يكون مقابل الإطلاق في الكمال الساري في الوجود بأكمله؟ إنه الفقر المطلق هو وحده الذي يمكنه أن يقف في وجه الكمال المطلق وقد عبّر القرآن عن هذا ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد﴾[٥].

---

(١) سورة: الحجر، الآية: ٢٩.

(٢) سورة: طه، الآية: ٤١.

(٣) الخميني، روح الله: الأربعون حديثاً، بيروت. دار التعارف، ط ٤، ١٩٩٢، ص ٦٧.

(٤) سورة: طه، الآية: ٥٠.

(٥) سورة فاطر، الآية ١٥ .

في هذه الآية دعوة لكافة أبناء البشرية للتفكر في فقرهم، لأن الله سبحانه هو الذي يخبرهم بأنهم فقراء. يا أيها الناس خطاب شامل أنتم الفقراء صفة الناس جميعاً، الناس: لو رجعنا إلى الفطرة نجد أن الله سبحانه ذكر فطرة الناس، والفطرة هي التي تطلب الكمال المطلق أي أنها تطلب الله سبحانه من وجهتين: أولاً إنها تهرب من النقص والفقر بنحو مطلق أي هي فقيرة إلى الكمال المطلق. ومن جهة أخرى هي تعشق الكمال المطلق، لذلك كانت تكملة الآية بأنكم فقراء إلى الله (الكمال المطلق) والفقر من الصفات يسده الغنى وتتمة الآية تعريف بصفات الله الغني الحميد.

ما هو مقدار هذا الفقر؟ هذا الفقر هو مطلق لأن البشر كافة لديهم احتياج مطلق للسعادة وللكمال، وقد أشير إلى هذا المعنى في ذيل الآية بكلمة الله، أي أنتم الفقراء إلى الله والله هو مطلق في وجوده.

والله هو الغني الحميد: الغني صفة من صفات الله والله صفاته مطلقة، أي بما أنكم فقراء فالله هو الغني المطلق الذي سد هذا الفقر بل وهو الحميد. الحميد من الحمد والحمد هي النعم والنعم هي الكمالات، والحميد هو صاحب الكمالات الكامل، فالله هو الكمال المطلق.

إن الباعث والمحرك الذي يدفع البشرية للوصول إلى الكمال المطلق هو الأمل الذي يجدونه في أعماق نفوسهم، ويدفعهم نحو الكمال، هذا الأمل هو الانجذاب نحو المعبود الحقيقي ومصدر الكمال من جمالٍ وعلم وقدرة وسيطرة وإرادة وحياة، فالحركة اليومية للبشر جميعاً

ترشدنا إلى أن هذا الإنسان يسعى بشكلٍ دائم ومستمر ولا متناهٍ لتحصيل المنفعة والراحة والسعادة والقدرة والعاطفة وجميع الصفات الكمالية، ويهرب ويفر من الشقاء والتعاسة والفقر والنقص وما يشبهها من السلبيات.

السعادة اللامتناهية:

إن كافة البشر يسعون نحو الكمال المطلق، والكمال هو كل أنواع الراحة والغنى والاطمئنان والثقة والعزة والجمال، وهذا الكمال باعث للسعادة في الإنسان، أي أن الإنسان الذي ينشد الكمال هو طالب للسعادة وللتحقق بها، وليس الكمال وحسب بل الكمال المطلق اللامتناهي، أي هو طالب للسعادة المطلقة اللامتناهية. والهروب من النقص والحرمان والمرض والفقر والمذلة والتعاسة والشقاء والخوف والعذاب والبؤس وكل أنواع النواقص هو سعي نحو الكمال والسعادة، لأن الإنسان بفطرته يفر من النقص والحرمان ويطلب الكمال وما يقرب إليه.

إذا أردنا أن نبرهن عملياً هذا الموضوع فالأمر يحتاج منا إلى التفكير بالطبيعة البشرية والحركة الدائمة التي تدفع الإنسان للسعي نحو هدف ما، فهناك عملية سعي دائم من البشر. هذا السعي يحتاج إلى تأمل لندرك من خلاله وجهة هذا السعي. ومن خلال التفكّر والسير في الآفاق والأنفس كما ذكر لنا القرآن ﴿وسنريهم آياتنا في

الآفاق وفي أنفسهم حتى يعلموا أنه الحق من ربهم الا يكفي أن ربك على كل شيء شهيد﴾[١].

فهناك السير الآفاقي والسير الأنفسي، فالسير الآفاقي هو رحلة في الآفاق الخارجية أو الواقع الخارجي، والسير الأنفسي هو رحلة إلى أعماق الذات أو إلى الواقع الداخلي ولكن هنا يطرأ سؤال: أنه كيف للواقع الداخلي أن يكون دليلاً ومنبعاً للآيات الكبرى المطلقة؟

والجواب هو أن المعرفة الداخلية في أعماق النفس الإنسانية هي معرفة توصل إلى الحقيقة وهي معرفة مطلقة والحديث الشريف يذكر:

«من عرف نفسه عرف ربه»[٢]، أو **«غاية المرء معرفة نفسه»**[٣]، **«أفضل المعرفة معرفة النفس»**[٤]، **«أفضل المعرفة معرفة الإنسان نفسه»**[٥].

عن علي(ع): «اطلبوا العلم ولو بالصين وهو علم معرفة النفس وفيه معرفة الرب عز وجل»[٦].

فكيف لمن يعرف نفسه أن يعرف ربه؟ وكيف تصبح معرفة المخلوق المحدود هي في مقابل معرفة الخالق المطلق؟ طبعاً ليست هذه المعرفة

---

(١) سورة: فصلت، الآية: ٤١.

(٢) الطباطبائي، محمد حسين: رسالة الولاية، قم: قسم الدراسات الإسلامية، ١٣٦٠هـ.ق. ص ٣٨.

(٣) الطباطبائي، محمد حسين: المصدر نفسه، ص ٣٩.

(٤) الطباطبائي، محمد حسين: المصدر نفسه، ص ٣٨.

(٥) البحار: مجلد: ٧٨، ص ٢٥٥، رواية: ٩، باب: ٢٦. /الطباطبائي، محمد حسين: رسالة الولاية، قم: قسم الدراسات الإسلامية، ١٣٦٠هـ.ق. ص ٣٨.

(٦) البحار: مجلد: ٢، ص ٣٢، رواية: ٢١، باب: ٩.

هي مقابل معرفة الله بل هي في عمق معرفة الله؟ ومعرفة النفس إذا كانت مجردة فلها قابلية الإطلاق. فهي بيت الإطلاق وحاضرة فيه. والحضور يؤدي إلى الشهود، والشهود يؤدي للمعرفة والتحقق وأما النفس المقيدة فهي قابعة في الإطلاق ومن خلال مساحة وجودها في عمق المطلق تكتشف فقرها له فتعرف من ضعفها وفقرها ما يقابلها وتشتاق إليه.

السعي الدائم:

يسعى الإنسان منذ اللحظة الأولى إلى حركة غير منقطعة حتى آخر أنفاس حياته، وهذه الحركة التي تدل على سعي يرافقه احتياج دائم فترى الطفل الرضيع يحتاج إلى الغذاء فيطلبه بالصراخ والبكاء، وهذه الوسيلة الأولى التي يملكها ومن ثم يزداد نمواً ونضوجاً.

ويتوسع إطار الحاجة والوسيلة فيبدأ هذا الطفل بالتعرف على الأشياء وعلى يديه وعلى صوته وعلى الأشكال ولا يكتفي من هذه المعرفة وتبدأ معها عملية القدرة على الأشياء، فيريد التحرك والتكلم والمشي والتكلم وتتطور أكثر فأكثر.

ثم يبدأ بعملية الإحساس والألفة فيبتسم للوجوه التي يألفها، وللأشخاص الذين يعتاد عليهم.

ويستمر الإنسان في توسيع إطار حاجاته وافتقاره إلى أمور عديدة لا تعرف الانقطاع، فمن المستحيل أن نجد إنساناً لا يفتقر إلى حاجات

على الصعيد المعنوي أو المادي لذلك يجب تحديد وجهة هذا السعي:

❖ إن الفطرة الإنسانية هي التكوين أو الجبلة الأساسية للإنسان. ولهذه الفطرة ميزات كما ذكرنا.

إنها مشتركة، ذاتية وثابتة ومتفاوتة، وكذلك الأمر فإنّ هناك حاجات وميول لهذه النفس لكن لكي نميز هذه الحاجات والميول إذا كانت أصيلة فطرية أم ميول وحاجات وهمية، وكما عرفنا الوهم هو أدنى مراتب المعرفة وتكون المعرفة فيه أقل من الظن والشك بكثير أي هو ما دون الظن والشك، وتلك المعرفة لا يمكن الاستناد عليها أبداً لذلك إذا ما كانت الميول وهمية فهي لا بد من أن لا توصل هذه النفس إلى غايتها.

والحاجات الأصيلة الفطرية هي التي تكون ذاتية موجودة في أعماق النفس بدون اكتساب، ومشتركة بين جميع أبناء البشر وثابتة لا تتغير مع تغير الأمكنة أو الأزمنة.

ومع التفكير في النفس الإنسانية نجد أن لهذه النفس ميولاً وسعياً دائماً ويوميّاً نحو ثلاثة أمورٍ أساسية:

١ - الميل نحو العلم والمعرفة:

نجد أن هذه النفس لها ميل نحو العلم والمعرفة فهي تحب التعرف على مختلف الأشياء والأمور ونجد فطرة طلب المعرفة موجودة ذاتية في الإنسان، فإنّ حب المعرفة الفضولي يدفع الإنسان إلى التعرّف على نفسه وعلى غيره، على الأمكنة، على التاريخ، على الأفلاك، فهو طالب

معرفة كل مجهولٍ أينما وُجد، ولكن ما هي حدود هذه المعرفة، إذا ما دققنا النظر في النفس الإنسانية نجد أنها لا تعرف الشبع من المعرفة فهي لا تكتفي من العلم والمعرفة بنحوٍ مطلق، فلا أحد يقول أنه اكتفى الآن من المعرفة لأنه طالما يعيش لحظات الوجود يعني أنه ينتظر اللحظة التالية، والوجود هو معرفة وإحساس حتى هؤلاء الذي ينتحرون فهم يريدون التخلّص من واقع أليم، وهم يعتقدون أنهم سيحسون بإحساس أجمل عندما ينتحرون وهذا الإحساس الأجمل هو معرفة ما.

وفي الحديث الشريف «منهومان لا يشبعان يشبعان، طالب علمٍ وطالب دنيا»[١]، «منهومان لا يشبعان منهوم بالمال ومنهوم بالعلم»[٢]، فطالب العلم لا يشبع لأن كل معرفة تفتح أمامه أبواباً من المعرفة والعلم، فالحدّ لهذه المعرفة هو المطلق اللامتناهي وفي الموت أيضاً.

«كل وعاءٍ يضيقُ بما جُعِل فيه إلا وعاء العلم فإنه يتّسع به»[٣].

- الميل نحو القدرة والسيطرة:

الميل الثاني الذي يمكن ملاحظته في الإنسان هو الميل نحو تحصيل القدرات والنفوذ والسيطرة، فما المال إلا وسيلة لتحصيل قدرة ما مثل التحرك والانتقال، الدفاع، البناء الاستقرار وغيرها من أنواع القدرة.

(١) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد المعتزلي، مجلد: ٢٠، باب: ٤٦٦، ص ١٤٧.
(٢) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد المعتزلي، مجلد: ١٩، باب: ٢٠١، ص ٢٥.
(٣) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد المعتزلي، مجلد: ١٩، باب: ٢٠١، ص ٢٥.

إذاً فالنفس تميل بفطرتها إلى كسب كل قدرة ونفوذ، فالجندي يتمنى بفطرته أن يكون في منصب قائد مجموعة، وإذا ما وصل يطمح ويصبو أن يكون قائد كتيبة أو لواء، حتى إذا ما حصل على هذا المنصب، تمنى أن يكون قائداً لجيش ومن ثم للبلاد وللعالم ولجميع ما تصل إليه عيناه أو تسمعه أذناه، فطالب القدرة أو المال لا يعرف الشبع. وهذا الميل هو ميلٌ مطلق.

❖ **الميل نحو الارتواء العاطفي:**

إن الميل نحو الارتواء العاطفي أيضاً هو من الأمور المشتركة بين سائر البشر والإنسان يطلبه منذ اللحظة الأولى وحتى آخر عمره، فيطلب العاطفة من الوالدين ومن الأخوة ومن الأصدقاء ومن الجنس الآخر ومن الطبيعة، فنحن نجد أن بعض الناس قد يعتزلون البشر ويستأنسون بالطبيعة أو بتربية الحيوانات، وهذا الأمر إنما يدلنا على الاحتياج والفقر للارتواء عاطفياً من محيطهم، وهذا الاحتياج لا يعرف الشبع فهو مطلق ولامتناهٍ.

الإنسان طالب للكمال:

إن كل إنسان يطلب فطرياً كل كمال: فما العلم والقدرة والارتواء العاطفي إلا صفات الكمال ومن يطلبها، فهو يطلب الكمال، وبما أن طلب هذه الصفات بنحو مطلق والاحتياج والفقر فيها مطلق، فيكون فقرنا واحتياجنا إلى الكمال مطلقاً أيضاً.

فكلّما وصل الإنسان إلى بعض أنواع الكمال، طلب كمالاً أكثر، وهذا

الطلب ممزوج بالحب ولا يمكن أن يفارق الإنسان، لأنه لا يمكن أن يطلب شيئاً لا يحبه، فحب الكمال المطلق هو أمر أساسي لذلك فكل سعي أو كل تحرّك لأي إنسان هو سعي وطلب الكمال للكمال المطلق.

الكمال المطلق هو الله:

محال أن يكون الكمال المطلق اثنين أو أكثر، فالكامل لا بد أن يكون واحداً فكيف إذا كان مطلقا!!

الكمال المطلق لا يتكرر ولا ينتفي ولا يتجزأ لأنه يخالف الكمال والإطلاق معاً.

فالكمال المطلق يجب أن يكون محتلاً لكل ذرات الوجود ومهيمناً عليها، ويجب أن لا يخلو من مكان وإلا لو كان محدوداً بمكان دون الآخر لاحتاج إلى المكان الذي ينقصه، وهذا خلاف الكمال المطلق.

إذاً الكمال المطلق هو الله والناس تبحث عن الكمال المطلق ولكنه محجوب عنهم، لأنهم هم محجبون عنه بحجب الأنانية والمحدودية، وهم يتوهمون أنهم يطلبون شيئاً آخر غيره فأي سعي نحو أي نوع من أنواع الكمال يكون سعياً نحو الكمال، لكنهم لا يعلمون انهم يطلبون الكمال المطلق والكمال المطلق لا يمكن أن يتحقق في المحدود بل يحيط به.

لذلك فالناس لا تقتنع بأي درجة أو نوع من الكمال يصلون إليه فهم يطمحون إلى كمال أعلى وأجمل وأقوى، ولا يكتفون بأي قدرة أو منصب و لا يجدون فيه غايتهم، فالذي يحصل على مال أو قدرة يسعى دائماً لتحصيل المزيد بنحوٍ مطلق.

والذي يصل إلى درجة من العلم لا يكتفي بها بل يطلب المزيد، وكذلك في العاطفة والحياة فالإنسان طالب للحياة الأبدية والارتواء العاطفي المطلق، ولا يكتفي بجرعة قليلة من العلم أو القدرة أو العاطفة ومهما بلغت مقدارها فالاحتياج المطلق لا يسده إلا المطلق لذلك كانت الآية ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد﴾[١].

أو في الحديث القدسي «لا تسعني أرضي ولا سمائي بل يسعني قلب عبدي المؤمن»[٢].

ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذا الأمر فهم يتوهّمون أنهم يتطلبون غير الله فالفطرة الإنسانية كما ذكرنا هي متفاوتة بين البشر ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيِّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[٣].

النفس بيت الإطلاق:

﴿لا تسعني أرضي ولا سمائي بل يسعني قلب عبدي المؤمن﴾[٤].

إن النفس الإنسانية هي بيت الكمال المطلق وقد أشرنا سابقاً إلى أن لهذه النفس قابلية مطلقة فهي تتطلب الإطلاق وتنشده إليها، ولها به احتياج وفقر لا متناهٍ. والإنسان هو المخلوق الوحيد الذي له قابلية

(١) سورة: فاطر، الآية: ١٥.

(٢) الخميني، روح الله: الأربعون حديثاً، بيروت. دار التعارف، ط ٤، ١٩٩٢، ص ٦٧.

(٣) سورة: الروم، الآية: ٣٠.

(٤) الخميني، روح الله: الأربعون حديثاً، بيروت. دار التعارف، ط ٤، ١٩٩٢، ص ٦٧.

الإطلاق أو الوصول إلى المطلق، هذا إذا ما جعلنا مخلوق الجن معه، لأنّ كليهما مطالبان بالعبودية، والعبودية هي الانصياع التام للمطلق وبما أن من صفات المطلق الفيض المطلق، فإذا ما كانت لديهم العبودية والتسليم كما هما مطالبان به. فإنّ الفيض المطلق سيجري في وعاء وجودهما. ومن صفات الكمال المطلق أيضاً هو إعطاء الوجود كماله والإنس والجن هما أهم الموجودات، ولهما نعمة الاختيار فإذا ما اختاروا الرحمة الإلهية استطاعوا أن يصلوا إلى أعلى مدارك الكمال.

إن النفس الإنسانية كلما ازدادت نقاوة وزالت عنها الحجب أصبحت كالماء الصافي الذي يستطيع أن يعكس نور الشمس بشكل واضح وجليّ، وكذلك الإنسان فكلّما كان قليل الحجب استطاع أن يعكس في مرآة وجوده صورة الحق جلا وعلا.

فالإنسان المعصوم هو الذي عصم نفسه عن الحجب التي تمنع انعكاس نور الله في وجوده فهو الإنسان الكامل الذي يحوي بداخله جميع مراتب الوجود لأنه أشرفها وأشرف مخلوق يكون هو السبب في باقي المخلوقات المتدنية عنه ويكون هو عليها.

لذلك فالإنسان الكامل هو الإنسان الذي يخلف الله في جميع مراتب الوجود والآية القرآنية ﴿إني جاعلٌ في الأرض خليفة﴾[1]، الأرض هي المكان المستقر عن الشيء الصادر منه ومفهوم الأرض غير مفهوم الكرة الأرضية ومفهوم السماء أيضاً له فهم خاص فالأرض لنا أرض والقمر لنا سماء وإذا كان أحد موجود على القمر لقال عن أهل الكرة

(١) سورة: البقرة، الآية: ٣٠.

الأرضية أهل السماء وهكذا بالنسبة لأهل الشمس وأهل الكواكب الأخرى فمفهوم الأرض والسماء مفهوم نسبي وفي الآية بأن الله جاعل في الأرض خليفة ولذا قلنا بأن الله ماذا يخلف غير صفاته وأسمائه والأرض هي المرتبة المباشرة التي تلي الله لذلك فمرتبة دون الله هي المرتبة الكاملة التي تنعكس فيها نور الله على العباد.

فالإنسان الكامل مرتبته هي الأرض لله أي المرتبة التي تخلف الله عز وجل والخلافة هي خلافة الله بالأسماء والصفات على جميع مراتب الوجود.

مراتب النفس:

إن للنفس الإنسانية مراتب عديدة وان معرفة هذه النفس متوقفة على هذه المراتب وكما في الحديث عن الإمام علي من لم يعرف نفسه بعد عن سبل النجاة وخبط في الضلال.

ومراتب النفس هي:

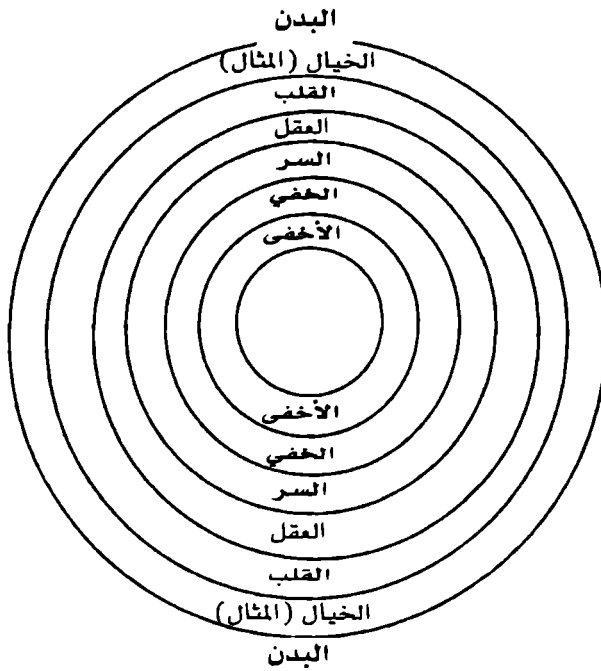

وحتى تتم معرفة هذه النفس يجب أن تعرف كيف تقسم هذه النفس، رغم أن حقيقتها بسيطة كحقيقة هذا الوجود لا ماهية له، ولذلك فمظاهر الوجود تختلف في مرتبة الظهور وتحدد بالماهيات، وكذلك حقيقة النفس في ظهورها تعرض عليها القابليات والماهيات. وأدنى هذه المراتب أو المظاهر هي مرتبة البدن، ويكون المظهر الأعلى هو أكمل وأشمل، وهو المثال، والمظهر المحيط فيه هو العقل حتى نصل إلى حقيقة النفس المجردة بالمطلق عن أي حد أو رسم لا بنحو الإطلاق الوجودي، وإلا استلزم تجزئة المطلق وهذا محال وخاصة في ساحة

الوجود ولكن ما نعني به النفس البسيطة المجردة بالمطلق من حيث القابلية، وإذا كانت القابلية لها وعاء الإطلاق فلا ماهية لها، بل تكون منصهرة في مبدأ الوجود وما يظهر منها هو امتلاؤها بنفحة الوجود المطلق. ﴿ونفخت فيه من روحي﴾[1].

❖ البدن:

ليس المقصود بالبدن المادة الفعلية المتحققة في عالم الطبيعة لجسم الإنسان فإنّ طبيعة هذا البدن الفناء والزوال. من صفات النفس الخلود والبقاء فلا ينسجم هذا البدن مع حقيقة النفس ولكن المقصود بالبدن هو الهيكل الجسمي الذي يتشكل منه الجسم المادي أي الإطار الذي يظهر به البدن. فإنّ النفس من أعلى مراتبه لكي تتمظهر في عالم الطبيعة والملك ولا بد لها أن تظهر فيه بجسم يكون من سنخية هذا العالم المادي، وإلا لما كانت ذات قابلية مطلقة أي يمكنها الظهور في عوالم الظهور والفناء في عوالم البطون. لذا فلكي تظهر لا بد لها من إطار يحدد لها حدودها في هذه المرتبة من العوالم. وفي كل عالم من العوالم التي ستعبر فيها هذه النفس سوف تتمظهر بمادة تكون فيه من سنخية ذاك العالم. لذا فلحقيقة النفس في مرتبة البدن حقيقتان حقيقة رتبية وحقيقة دائمة. الحقيقة الرتبية هي الأعراض التي تظهر بها النفس في كل مرتبة وتكون من سنخية المرتبة والمادة فيها. وحقيقة دائمة معها وهي الإطار والقالب الذي يقولب

(١) سورة: الحجر، الآية: ٢٩.

النفس بالمادة حتى تدخل هذه النفس عالم اللاهوت حتى يكون الإطار مطلقاً والبدن الرتبي فإنّ لحقيقة رتبة هذا العالم. وعالم مرتبة البدن هو عالم الناسوت أو الملك.

❖ **الخيال (المثال):**

وهو المرتبة الأكمل من البدن والمحيط به، وتميز بالليونة في مادته بحيث تكون المادة ذات إطار أوسع، وصفاتها أكمل من حيث العلم بذاتها والقدرة والحس والشعور، بغيرها وبها تسيطر النفس على المادة الطبيعية أن هذه المرتبة مشرفة على مرتبة البدن وهي مرتبة ما بين المادة والمجرد، والزمن فيها مرتبط بمادتها والتحكم به سهل كما للمادة حرية أكثر في التعبير والتمظهر، وهو الوسيلة المصورة لعالم المجرد فالحقائق المتنزلة من عالم المجرد المطلق لا تأخذ صورها إلا في عالم المثال.

لذلك هو يأخذ الحقائق ويصورها كما ينتزع الصور ويجرها وهو العاكس في كلتيهما من الأعلى إلى الأسفل ومن الأسفل إلى الأعلى، من الكلي إلى الجزئي ومن الجزئي إلى الكلي وفي هذه المرتبة تكون الساحة مفتوحة للخواطر، وتجول أحصنة الخيال داخل مساحتها وتبقى هذه المرتبة محدودة بحدود ما تتخيله أو ما يخطر بساحتها من ماهيات وعالم هذه المرتبة من النفس هو عالم الملكوت.

❖ **العقل:**

وهو أول المراتب المتدنية من المجرد المطلق «أول ما خلق الله خلق

العقل» ... وهذه المرتبة هي مرتبة معصومة أي لا يمكن أن يصدر منها خلل وتكون هذه المرتبة برزخ للماهيات والأعراض، حيث تتحدد الماهيات بصورة أولية في هذه المرتبة وفي صورة ظاهرية نهائية في عالم البدن. والعقل هو من يعرض الماهيات على الوجود فتكون الماهيات مفهوماً اعتبارياً انتزع العقل لكي يظهر هذا الوجود في جميع المراتب، من ظهور وبطون وطالما دخل في عالم الظهور، دخلنا في عالم الماهيات في إظهارها من دوافعها، وهو محيط بالمراتب المتدنية عنه كالمثال. (والعقل هو الذي يضبط حركة الخيال الجموح لذلك فهو فارس عالم الخيال وهو أمير البدن كما في الحديث: «العقل أمير البدن»)[1] ومنه تبدأ المقادير والتقارير والتدبر والشؤون وعالم هذه المرتبة هو عالم الجبروت.

❖ القلب:

وهو وعاء مطلق وهو سلطان النفس ومنه تنطلق الدوافع وله الإحاطة بالعقل والخيال والبدن وقد يعتقد كثير من الناس بأن هناك فصلاً بين القلب والعقل، هناك فصل بين العقل والقلب لكن ليس هناك فصل بين القلب والعقل، فكل قلب هو عقل دون العكس. فالعقل هو قلب القلب أي لا يكون هناك قلب دون العقل، والقلب له خاصية اندكاك الماهيات عنده فيكون سعة للمطلق كما في الحديث «بل

(١) درو جامعية في شرح مصباح الهداية، (مادة العرفان)، د. محمد خاقاني.

يسعني قلب عبدي المؤمن»[١]. فيكون قد استوعب كل مراتب الظهور، ويستعد للدخول في مراتب البطون حيث غيب الهوية ولكن هذا القلب له جهتان جهة نحو عالم الظهور وجهة نحو عالم البطون، وهذا المقام هو مقام الحب المطلق الذي وصله حبيب الله محمد في أعلى مقام فكان قاب قوسين أو أدنى، حيث لم يستطيع جبرائيل أن يعبر مع الرسول، لأن جبرائيل هو من عالم الجبروت العقل المجرد وهو مقصد اتبعوني يحببكم الله وهذا العالم اسمه اللاهوت.

❖ السر:

وهنا تبدأ مشاهدة حقيقة النفس وهي الفقر المطلق فتعرف حقيقة الغنى المطلق وعرفت حقيقة الوجود من مراتب الظهور والمشيئة المطلقة ومراتب البطون والغيب المطلق فتحصل عملية الفناء وتكسر أصنام الحدود والماهيات وتبدأ عملية الإطلاق حيث ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر حيث تكون هذه المرتبة أعلى من مرتبة القلب ولا اسم لهذه المرتبة من عوالم الإطلاق (وهي مرحلة الشهود)[٢].

❖ الخفي:

وهنا يشاهد حقيقة الفناء فيفنى في الفناء بحيث لا تكون التفاتة

---

(١) الخميني، روح الله: الأربعون حديثاً، بيروت: دار التعارف، ط٤، ١٩٩٢، ص ٦٧ .

(٢) مطهري، مرتضى: العرفان، بيروت: دار المحجة البيضاء، دار الرسول الأكرم، ط١، ١٩٩٣، ص ١١٧ .

إلا إلى الفناء ولا لذرة واحدة من مراتب الظهور بحيث تكون جميع مراتب النفس قد فنيت وتحققت فيها مرتبة الظلم والجهل المطلق بالنفس، حيث الظلم هو وضع النفس في غير موضعها حيث لا موضع لها ﴿لا مقام لكم بها فارجعوا﴾[١]، أي لا مرتبة تقبل بها النفس وتتعدى المراتب والحدود وتنطلق لتسبح في بحر الوجود المطلق والجهل المطلق بالنفس التي تحيط بكل المراتب الدونية بحيث لا حقيقة لها لأن الحقيقة هي للوجود والحد عارض عليه، لذا فإحاطة النفس هي إحاطة اعتبارية وما لها من علم به هو واهٍ واعتباري، وعند فك القيد في هذه النفس تصبح جاهلة بالمطلق بكل ما سوى الوجود تفنى بالمطلق وتدخل في عالم السعادة المطلقة المجردة، وتواصل عملية الخلود الوجودي لا الزماني. ولا اسم ولا وصف لهذا العالم.

❖ الأخفى:

وهو بحر الوجود المطلق وحقيقة الوجود ولا يصل إلى هذا العالم إلا من وصل إلى حقيقة الحب المطلق وتفجر في الإنسان سر وجوده وغايته وتحقق فيه معنى الرجعة المطلقة ﴿وإن إلى ربك الرجعى﴾[٢]، وإلى مقام من دخله كان آمناً، وهو غيب محض وظهور محض، فما كان من الظهور نظهر للغير بهو فيها نحن وما كان في البطون نعني بنحن فيها هو إشارة إلى الحديث «إن لنا مع الله

(١) سورة: الأحزاب، الآية: ١٣ .
(٢) سورة العرق، الآية: ٨ .

ســاعات نحن فيها هو وهو فيها نحن إلا أنه هو هو ونحن نحن»[٢]، فهو الوجود المطلق ونحن القابلية المطلقة وهو الغنى المطلق ونحن الفقر المطلق.

البدن - الخيال - العقل - القلب - السر - الخفي - الأخفى - مطلق (مطلق).

عبادة النفس:

لم يصل كل إنسان إلى الفناء ولم يصل إلى حقيقة الوجود، فهو ممن نال حظه من الشرك والضلال وعبادة النفس والهوى، ولهذه العبادة منشأ وهو حب الكمال المطلق ورفضها لما دون الله يجعلها غير متقلبة لأي موجود عدا الله، فهي لا رب لها ولا حقيقة لها إلا الله الأعلى، ولأنها لم تصل إليه بحقيقة الشهود والفناء فإنّها تستعيض عنه بالشهود الذاتي لنفسها، لأن المعرفة الحضورية هي المعرفة الوحيدة اليقينية، ولا يملك الإنسان في هذه الحالة إلا معرفته بنفسه، فيرضخ لها على مستوى الباطن دون العلم بذلك إلا عندما تكشف الحقائق فيدرك بأنه عابد لصنم نفسه وإلى تلك الحدود، وإنما كل سعي يسعاه الإنسان هو لنفخ هذا الإطار وتحصيل الكمالات أكثر فأكثر.

الصنم الأكبر:

النفس هي الصنم الأكبر وهو الصنم الخفي الذي لا تكتشفه النفس إلا بالمجاهدة والكشف، ويمكنها بالمجاهدة الانتصار عليه

---

(١) الخمينين روح الله: شرح دعاء السحر، بيروت: مؤسسة الوفاء، ط٢، ص ١١٣ .

وكسره لأن كسر هذا الصنم هو فك القيد والأغلال عنه وهو هدف الأنبياء، أن يضعوا عنا الأغلال وهذه الأغلال والقيود خلاف الفطرة التي تنشد الكمال اللامحدود وكما في الحديث «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»(١)، لأن المؤمن روحه لا تقبل الانحباس في سجن الطبيعة لذلك ورد ذم الدنيا في

بعض الروايات أما الروايات التي تمدح الدنيا فهي الدنيا التي تكون معيناً للنفس في الوصول إلى حقيقته المنشودة، وان الإنسان ليكتشف أن كل أعماله وعبادته إنما كانت متوجهة لهذا الصنم، وأن كل مطلب سوى الحق هو شرك ولا يمكن غفرانه.

﴿إن الله يغفر الذنوب جميعاً إلا أن يشرك به﴾(٢)، لذلك فالحسرة والندامة سترافق هؤلاء الذين لم يصلوا إلى حقيقة الوجود وهو الحق سبحانه وتعالى ﴿يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله﴾(٣)، «أعدى عدوّك هي نفسك التي بين جنبيك»(٤)، كما في الحديث، لأنها تمنع الإنسان من الوصول للسعادة اللامحدودة وللقضاء على هذا العدو يجب معرفته فمعرفة النفس هي الحل الوحيد للإفلات من براثن الحدود التي يفرضها الجهل، لأن معرفة هذه النفس تكشف لنا عن فقرها وأي فقر، الفقر المطلق. لذا تكون معرفة

---

(١) البحار: مجلد صفحة ١٥٤، رواية: ٩، باب: ٦.

(٢) سورة: الزمر، الآية: ٥٣.

(٣) سورة: الزمر، الآية: ٥٦.

(٤) طهراني، محمد حسين: رسالة لب اللباب، ترجمة نور الدين عباس، بيروت: دار التعارف، ط١، ١٤١٣هـ. ص ٦٠.

للغنى المطلق هي أمر اعتباري وإنما الوجود للوجود فتعرف بأن هذا الوجود ليس منها ولا لها إنما هي خافية فيه وتتحقق بمعرفة النفس، معرفة الوجود وإحدى أوائل هذا المعرفة بالله عبر النظر الأنفسي وكما قلنا بأن الدليل ينطلق من التفكر والتأمل في الوجود والآية تشير إلى هذا المعنى ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾[1].

والنظر في أعماق النفس الإنسانية يرشدنا إلى حقيقة الوجود ومنها أننا إذا نظرنا إلى ميول هذه النفس، وجدناها تميل إلى طلب المعرفة والعلم بنحو مطلق كما مر ذكره، وتميل أيضاً إلى طلب القدرة والسيطرة بنحوٍ مطلق وإلى الارتواء العاطفي بنحوٍ لا يعرف الشبع والعلم والقدرة والارتواء العاطفي المطلق من صفات الله دون غيره، وهي صفات الكمال المطلق فالنفس الإنسانية تتطلب الكمال المطلق ولها ميل وحاجة وفقر إليه.

إن الاحتياج لدى الإنسان يقسم إلى مادي (غريزي) وإلى معنوي، ومن الاحتياج المادي: الجوع - العطش - الجنس، ومن الاحتياج المعنوي: الحب - العلم - القدرة وغيرها.

كما تقسم الحاجات إلى أصيلة وإلى موهومة ولكي نميز بين حاجاتنا الأصيلة وحاجاتنا الموهومة، يجب معرفة دوافع ومنشأ هذه الحاجات. إن الحاجات الأصيلة هي التي تكون حاجات فطرية أي تكون ذاتية - أي موجودة في الإنسان دون اكتساب، ومشتركة مع جميع

---

(١) سورة: فصلت، الآية: ٤١.

أبناء البشر وثابتة لا تتغير زماناً ومكاناً. كحاجة الإنسان إلى المعرفة أو القدرة أو الحب فهذه حاجة أصيلة ذاتية فيه، فهو لم يتعلم حب المعرفة أو الميل إليه وكذلك في القدرة والحي أما التدخين أو القمار أو الرقص فإنّه ليس بحاجة أصيلة في الإنسان، فلا نجده من الأمور الذاتية التي وجدت معنا، ولا ليس مشتركاً بين سائر البشر ولا ثابتة فهو يتزلزل عند الإنسان.

الحاجات الأصيلة:

الحاجات الأصيلة دليل على وجود مصداقها فكل حاجة أصيلة لا بد من أن تكون موجودة لحكمة السعي لنيلها وتحصيلها، فالاحتياج الأصيل المادي ـ وهو احتياج غريزي جسماني ـ الموجود في الإنسان كالجوع والعطش والجنس لديه مصداق خارجي نسعى لتحصيله وهو الماء والأكل والزّواج وكذلك الأمر في الاحتياج المعنوي الأصيل كالحاجة إلى العلم والقدرة والارتواء العاطفي، فالعلم والقدرة والحب مصداق هذا الاحتياج والاحتياج إلى الوجود دليلٌ على وجوده والاحتياج إلى العلم والقدرة والحب بشكل مطلق وهذه صفات الوجود المطلق، والكمال المطلق دليل على وجوده وتحققه.

الفصل الرابع

الطـريق إلى الغايـة

الطريق إلى الغاية:

«رحم الله امرأ عرف من أين وفي أين وإلى أين» الإمام علي(ع)

بعد أن عرفنا من أين وإلى أين حيث أن للإنسان بداية ومعاد أو منتهى ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾[1]، ﴿وإن إلى ربك المنتهى﴾[2]، ﴿وإن إلى ربك الرجعى﴾[3]، بقي أن نعرف في أين أي ما هو الطريق الموصل إلى الغاية.

فإذا كان مبدأ الإنسان هو من الكمال المطلق وغايته هي الكمال المطلق وسعيه وفطرته تتطلب الكمال المطلق، وإذا كان الله خلقنا طالبين وعاشقين للكمال المطلق فهل يعقل أن يحرمنا أو يمنعنا من الوصول إلى الكمال المطلق. بعد أن علمنا أن الله فيضه مطلق ومن صفاته الهداية والكرم والرحمة فهو لا بد من أن يفيض على السالك إليه الطريق إلى الكمال المطلق.

ومن صفات الكمال المطلق فيض الوسيلة على السالك، ليصل إلى الكمال المطلق لأنه إما أن يصل الإنسان من جراء نفسه دون اللجوء إلى الكمال المطلق وهذا محال، لأن صفة الهداية هي من صفات الكمال هذا أولاً، ثانياً أن الإنسان لا يملك شيئاً بذاته فمن أين له أن

(١) سورة: البقرة، الآية: ١٥٦.

(٢) سورة: النجم، الآية: ٤٢.

(٣) سورة: العلق، الآية: ٨.

يعرف الطريق بنفسه، فلا بد للرجوع إلى مبدأ كل شيء، وخالق كل شيء ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾[١]، وإلى الذي أوجد الهدف والغاية والذي أوجد الاحتياج إليها وإلى المحيط بكل شيء. فقد عرف الإنسان بعد هذه المقدمات أن لا إمكانية له بالوصول إلى غايته (السعادة المطلقة) إلا من خلال الكمال المطلق. يعني بالطاعة له لأن الطاعة هي التسليم لأمره، وما إذا وضعنا حدوداً بيننا وبين هذا الفيض سنصاب بالفقر والمحدودية والفيض والبعد والحرمان عن الغاية لذا لا بد من التسليم بالمطلق لإرادة ولأوامر الكمال المطلق.

- ويقول الحكماء أنه من غير المعقول إذا دعاك عاقل إلى بيته ليكرمك وتوعدك إذا لم تأتِ، أن لا يرشدك إلى طريق بيته أو لا يرسل أحداً ليرشدك.

إن هدف الإنسان هو الوصول للسعادة اللامتناهية أو الكمال المطلق. لذا لا بد من أن يكون هناك برنامج أو طريق لكي يوصل إلى هذه السعادة، وكما علمنا أن السعادة المطلقة أو الكمال المطلق هي أقرب للإنسان من نفسه، فما هو العائق الذي يعيقه عن إدراك الكمال، لا بد أن يكون هناك موانع تمنع الإنسان، وتعيقه.

---

(١) سورة: الملك، الآية: ١٤.

الموانع أو الحجب:

إن تلك الموانع التي تعيق الإنسان لا بد أن تكون منه أو من الكمال المطلق، أو من عامل أخر غيرهما وليس هناك احتمال رابع. إما أن يكون من عامل آخر كالموانع الخارجية كالمادة أو المجردات، أما المادة فلا يمكن أن تعيق الإنسان لأن الإنسان تكامله معنوي. لأن السعي وراء العلم المطلق والقدرة المطلقة والارتواء العاطفي المطلق هو أمر معنوي وليس مادياً.

أما إذا كان العائق معنوياً فإما أن يكون سلبياً أو إيجابياً فإذا كان سلبياً فيعود للعدم وهو مردود لعدم وجوده، وأما إذا كان إيجابياً فهو من الكمال وليس بعائق.

إما أن يكون الكمال المطلق العائق منه فهذا محال لأنه لا يتصف إلا بصفات الكمال ولا يمكن أن يحرم أو يعيق أو يمنع فيضه عن الوجود، لأنه إما أن يكون عابثاً أو جاهلاً أو بخيلاً أو مقصراً أو ظالماً وهذا محال في جانبه جلا وعلا.

والاحتمال الثالث: أن يكون المانع أو العائق هو من الإنسان نفسه وهو عائد إلى طبيعة الاختيار في الإنسان فالله لشدة كرمه وفضله على العباد خلقهم بصورة كاملة، والصورة الكاملة لا بد أن يكون من صفاتها الاختيار، والاختيار هو من نتائج المعرفة والإدراك والوعي ولم يجبرهم على صفات معينة دون الإدراك والاختيار.

وبعد أن علمنا أن فيض الله هو من لوازم ألوهيته نتيقن أنّ كل محروم من فيض الله المطلق هو نتيجة الحجب التي احتجب بها عن فيض الله. وهو أن هذا الإنسان أعرض عن الكمالات اللامحدودة وأقبل على الكمالات الفانية الزائلة المحدودة وهو بذلك يحرم نفسه من الوصول إلى الكمال المطلق عند الله سبحانه وتعالى. وهو بدل أن يتجه إلى منشأ هذه الكمالات بالطول اتجه بالطريقة العرضية حيث الحدود والزوال وهو خلاف فطرته التي تنشد الكمال اللامحدود. وهذا اللبس ناشئ من الوهم الذي يشتبه به الإنسان في أن الكمال المطلق يكون في هذه الدنيا ﴿أسفل السافلين﴾[١]، ويغفل عن الحقائق العليا ﴿في عليين﴾[٢]، أو ﴿ما عندكم ينفذ وما عند الله باق﴾[٣]، لأن مرتبة العندية هي مرتبة لا يدخلها إلا من تخلت نفسه عن المحدودات ورضيت بالكمال المطلق ﴿أحياء عند ربهم﴾[٤].

﴿رب ابنِ لي عندك بيتاً في الجنة﴾[٥].

وهو مرتبة الحياة الأبدية الخالدة حيث يستطيع المرء أن يصل إلى رضوان الله تعالى. أما من يحرم هذه الطريق فلا يلومن إلا نفسه، حيث قد طلب حاجاته من غير مصدرها ويوم تكشف له هذه الحقيقة يقول ﴿يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله﴾[٦].

(١) سورة: التين، الآية: ٥.
(٢) سورة: المطففين، الآية: ١٨.
(٣) سورة: النحل، الآية: ٩٦.
(٤) سورة: آل عمران، الآية: ١٦٩.
(٥) سورة: التحريم، الآية: ١١.
(٦) سورة: الزمر، الآية: ٥٦.

وكما ذكرنا أن الإنسان يحجب نفسه لتوهمه بأن الكمال موجود في الأمور الزائلة وفي ذلك قوله تعالى ﴿إن الإنسان ليطغى إن رآه استغنى﴾[١].

وهذا الطغيان هو الخروج عن المطلب الذي فطر عليه وهو الوصول للكمال فتكون إرادته وأهواؤه هي التي أمرته للتوجه إلى تلك الأمور ﴿افرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم﴾[٢].

إن كل إنسان يتلقى أوامره من نفسه يكون قد مارس العبودية لهذه النفس، وكما ذكرنا أن عبادة النفس هي منشأ جميع الرذائل والمعاصي «أم الأصنام صنم النفس»[٣]، حديث شريف.

لذلك لا بد للذي يريد أن يتجه أو أن يصل إلى الكمال المطلق، لا بد له من التسليم لهذا الكمال المطلق لذلك سمي دين التوحيد الإسلامي بالإسلام لأن التسليم للحق جلا وعلا، وعملية التسليم هي العبودية المطلقة والاستسلام المطلق لإرادة العظيم والخير المطلق.

﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾[٤].

(إن من يجعل إرادته عين إرادة الله لا بد أن يصل للكمال وقد ذكر الإمام الصادق حديث في العبودية: «العبودية جوهرة كنهها الربوبية»)[٥]، فكلما مارس الإنسان العبودية كلما كان متجهاً نحو

---

(١) سورة: العلق، الآية: ٦ ـ ٧.

(٢) سورة: الجاثية، الآية: ٢٣.

(٣) دروس جامعية في شرح مصباح الهداية (مادة العرفان)، د. محمد خاقاني.

(٤) سورة: الملك، الآية: ١٤.

(٥) دروس جامعية في شرح مصباح الهداية (مادة العرفان)، د. محمد خاقاني.

الكمال. لأن الهدف الذي خلق لأجله الجن والإنس هو الالتزام بالعبودية ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾[١].

العبادة أو العبودية:

إن كلمة عبادة في اللغة من تعبد، أو عبّد الطريق وجعله معبداً أي جعله سالكاً.

أما في المصطلح الديني فهو الارتباط بين الخالق والمخلوق والارتباط بين العبد والمعبود لا يكون في جزء واحد من الحياة لأنه كما برهن فلسفياً على الموضوع أن حيثية وجود المعلول وارتباطه بعلته شيء واحد فهو لا ينفك عنه وإلا لزال وانعدم.

«إن روح المؤمن أشد اتصالاً بالله من شعاع الشمس بالشمس»[٢].

لذلك فإنّ حقيقة هذا الارتباط من جميع الجهات، فالله محيط بحقيقة الإنسان من جميع الجوانب وهو عين التعلق والربط به.

فلا يمكن أن نتخيل مساحة في وجود الإنسان لم يملأها الله بفيضه وكماله إلا ما حجبه الإنسان عن نفسه، فوجود الإنسان من الله ومرتبط بالله ويمكن لهذا الإنسان كلما ارتبط أكثر أن يملأ وعاءه ذا

---

(١) سورة: الذاريات، الآية: ٥٦.

(٢) الكافي: مجلد: ٢، ص ١٦٦، رواية: ٤.

القابلية المطلقة بفيض الله ليصل إليه تعالى، وما العبودية إلا ملء هذا الوعاء والتسليم المحض لإرادته.

«عبدي أطعني تكن مثلي تقل للشيء كن فيكون»[١]، وإن العبودية هي جوهر الإسلام ومنهجه في الوصول إلى الله وهذا القرآن فإنّ موضوعه هو الهداية ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾[٢].

والهداية نطلبها يومياً في كل ركعة من ركعات الصلاة ﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾[٣]، والصراط هو العبادة والتسليم ﴿وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾[٤].

العبادة مصدر السعادة:

وقد يختلط على الكثير أن العبادة هي في بعض الأمور الظاهرية كالصيام والصلاة والحج، ولكن العبادة كما عرفناها هي ارتباط الإنسان بجميع وجوده بالله سبحانه وتعالى ظاهراً وباطناً، حتى تتحقّق حقيقة التوحيد المحض الخالص ولا يكون فيه نصيب من الشرك ويصل إلى مرتبة الخلوص ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾[٥]،

---

(١) دروس جامعية في شرح مصباح الهداية (مادة العرفان)، د. محمد خاقاني.
(٢) سورة: الإسراء، الآية: ٩.
(٣) سورة: الفاتحة، الآية: ٦.
(٤) سورة: يس، الآية: ٦١.
(٥) سورة: ص، الآية: ٨٣.

حيث تكون كل ذراته خالصة لله ولا يصيبه شرك ولا عبودية لغير الله. لذلك على الإنسان أن يلتزم بالأوامر الظاهرية والباطنية حتى يصل إلى حقيقة العبودية حيث السعادة المطلقة.

﴿ذروا ظاهر الإثم وباطنه﴾[١]. حيث أن الله مطلع على ظاهره وباطنه وأخفى من ذلك ﴿فإنّه يعلم السر وأخفى﴾[٢].

إن حقيقة الالتزام بالأوامر الإلهية تكون مصدراً للسعادة «يا بن آدم أنا غني لا أفتقر أطعني فيما أمرتك أجعلك غنياً لا تفتقر، ﴿يا ابن آدم، أنا حي لا أموت أطعني فيما أمرتك أجعلك حياً لا تموت، يا ابن آدم أنا أقول للشيء كن فيكون، أطعني فيما أمرتك أجعلك تقول للشيء كن فيكون﴾[٣].

إن السعي وراء القدرة والعلم المطلق والحياة المطلقة لا يتحقق إلا بطاعة الكمال المطلق، والالتزام بأوامره ظاهراً وباطناً.

ونرى أن القرآن لم يأتِ على ذكر أحد من الأنبياء إلا وذكره بالعبودية، حيث كان تعظيماً لشأن النبي بهذا الوصف فمن ذا الذي يدرك مقام العبودية، ولا يكون أسعد البشر. وهذا النبي الأكرم موصوفاً بصفة العبودية.

﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾[٤].

---

(١) سورة: الأنعام، الآية: ١٢٠.

(٢) سورة: طه، الآية: ٧.

(٣) البحار: مجلد: ٩٣، ص ٣٧٢، رواية: ١٦، باب: ٢٤ .

(٤) سورة: الإسراء، الآية: ١.

أو سائر الأنبياء

﴿إنه من عبادنا المؤمنين﴾[١]. ﴿واذكر عبدنا أيوب﴾[٢].
﴿فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمةً من عندنا وعلمناه من لدنا علما﴾[٣].

والعبودية هي أن يكون الإنسان عبداً للحر المطلق الذي هو غير مقيد بأي قيد، وإن كل عبودية له تحرر الإنسان من كل قيد، وقد يخطئ من يخلط العبودية لله بالكمال المطلق بالعبودية السلبية التي كانت تمارس في العصور القديمة، وذلك لأنها كانت تمارس بين إنسان وإنسان أما أن تمارس بين معلول وعلته أو عبد وإله فهي عين الحرية والسعادة وقد طلب هذه العبودية كل الأشخاص الذين وصلوا إلى أعلى مدارج الكمال وهاهو الإمام زين العابدين في دعائه يطلب مقام العبودية «**أقمني بصدق العبودية بين يديك**»[٤].

أو كما في الدعاء المأثور «اللهم انقلني من ذل معصيتك إلى عز طاعتك»[٥].

وما الطاعة إلا الامتثال الكامل لإرادة المعبود. إن العبودية هي المنجى الوحيد من شراك إبليس والجهل والعدم والهوى وسائر الأمور التي تحتجب عن الحق جلا وعلا ولا نجاة إلا بالطاعة.

---

(١) سورة: الصافات، الآية: ٨١.
(٢) سورة: ص، الآية: ٤١.
(٣) سورة: الكهف، الآية: ٦٥.
(٤) الصحيفة السجادية.
(٥) البحار: مجلد: ٨٩، ص ٦٠، رواية: ٢، باب: ٥.

وعن الإمام الكاظم حيث يقول لأحد أصحابه «يا هشام نصب الخلق لطاعة الله ولا نجاة إلا بالطاعة»[١].

وفي حديث آخر «يا هشام اصبر على طاعة الله .... »[٢].

عن الرضا(ع): «والسابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى رحمته ...»[٣].

ومما قد علمته أن التسابق إلى رحمة الله هو أعلى مدارج الكمال.

عن الإمام الصادق(ع) ورد في تفسير آية «وفي ذلك فليتنافسون» أي فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله سبحانه وتعالى[٤].

وفي تفسير آية ﴿قوا أنفسكم وأهليكم نارا﴾[٥]، أي قوا أنفسكم النار بالصبر على طاعة الله وعن معصيته ... ﴿وأهليكم بدعائهم إلى طاعة الله﴾[٦].

وان عدم الطاعة لهو من الشرك حيث قال تعالى ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾[٧]، وفسرها الإمام الباقر(ع): «فهي شرك طاعة أطاعوا فيها الشيطان فأشركوا بالله في الطاعة لغيره ...»[٨].

---

(١) البحار: مجلد: ١، ص ١٣٨، رواية: ٣٠، باب: ٤.
(٢) البحار: مجلد: ١، ص ١٥٢، رواية: ٣٠، باب: ٤.
(٣) البحار: مجلد: ٧، ص ٨٢، باب: ٥.
(٤) البحار: مجلد: ٨، ص ١١٤، باب: ٢٣.
(٥) سورة: يوسف، الآية: ١٠٦.
(٦) سورة: التحريم، الآية: ٦.
(٧) البحار: مجلد: ٨، ص ٢٦٩، باب: ٢٤.
(٨) البحار: مجلد: ١٣، ص ٢٦٧، رواية: ٧، باب: ٩.

وعن النبي موسى «كل النفع في طاعة الله تعالى والائتمار لأمره..»[١].

وهذا إبراهيم قد وصل إلى ما وصل، «لجزائه على إحسانه في طاعة ربه ...»[٢].

وزكريا نادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب لأن طاعة الله هي الصلاة

«... إن طاعة الله خدمته في الأرض فليس شيء من خدمته تعدل الصلاة....»[٣].

وإن حقيقة العلم المطلوب فطرياً لا يتحقق إلا بطلب العبودية.

عن الصادق(ع) « فإنّ أردت العلم فاطلب أولاً في نفسك حقيقة العبودية»[٤].

وورد عن النبي(ص) في تفسير آية ﴿الصافات صفاً﴾[٥]،إشارة إلى وقوف الموجودات صفاً صفاً في مقام العبودية والطاعة.. «تكويناً بالعموم وتشريعاً باختيار الإنسان»[٦].

وما أرسل الأنبياء إلا لهذا الهدف وهو العبودية.

«وبعث إليهم رسله واتخذ عليهم حججه مبشرين ومنذرين يأمرون

---

(١) البحار: مجلد: ١٣، ص ٢٦٧، رواية: ٧، باب: ٩.

(٢) البحار: مجلد: ١٣، ص ٣٢٤، رواية: ٥٥، باب: ١١.

(٣) البحار: مجلد: ١٤، ص ١٨٠، رواية: ٣٥، باب: ١٥.

(٤) البحار: مجلد: ١، ص ٢٢٥، رواية: ١٧، باب: ٧.

(٥) سورة: الصافات، الآية: ١.

(٦) البحار: مجلد: ٥٩، ص ١٥٥، باب: ٢٢.

بتعاطي العبودية والتواضع لمعبودهم»[١].

وورد في الصحيفة السجادية عن الإمام السجاد في دعائه بالاستعاذة من الشيطان الرجيم: «اللهم وأعمم من شهد لك بالربوبية واخلص لك بالوحدانية وعاداه لك بحقيقة العبودية واستظهر بك عليه في معرفة العلوم الربانية»[٢].

وقد اشترط أن العبودية حتى تكون حقة يجب أن تكون عبودية في جميع المجالات والمراتب ظاهراً وباطناً، فكرياً وعملياً، عقلاً وقلباً، شاباً وشيخاً.

العبادة نهج الأنبياء

وكما قلنا إن العبادة هي التسليم المطلق لله وهي حقيقة التوحيد والإسلام وما من نبي إلا وكان عبداً لله، والعبد هو غير العابد، لأن العبد يطيع أمر مولاه أما العابد فهو الذي يمكنه أن يطيع هواه.

وفي الآية القرآنية ﴿إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾[٣].

بعد أن عرّف الله موسى على حقيقة الوجود، كان الأمر بالامتثال للكمال المطلق «فاعبدني» أي يا موسى أنا الله الكمال المطلق، توجّه إليّ

---

(١) البحار: مجلد: ٦١، ص ١٣٣، رواية: ٦، باب: ٢٣.

(٢) الصحيفة السجادية، للإمام زين العابدين، دعاء الاستعاذة من الشيطان.

(٣) سورة: طه، الآية: ١٤.

وأسلم نفسك إليّ واتصل بي بجميع كيانك. وأن جميع الأنبياء كانوا يلبون نداء فطرتهم ونداء إلههم الرحيم المطلق ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾[١].

فإنّ الإنسان مهما كان عظيماً وكاملاً فعظمته من الله وكماله من الله لبديهية أنه لا مؤثر ولا علة تامة في الوجود إلا الله.

ثانياً: إنهم يقفون أمام المطلق اللامتناهي، فإنّ كل عظمة وكل كمال يذوب أمام الكمال المطلق. ويعلمنا عيسى(ع) أن الإنسان لديه القابلية الكاملة للطاعة والعبودية من اللحظة الأولى التي ينطق فيها ﴿إنّي عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾[٢]، هذه الآية وردت على لسان عيسى في القرآن الكريم ومن المعلوم أن الكتاب قد أحصى كل شيء، وأنه من يؤتى الكتاب فقد أحصى أسماء الله، ومن يحصها يكن مستوجباً للكمال لذلك قد جعله الله نبياً. ومقدمة هاتين الصفتين هي العبودية لله حيث اعترف لله بالعبودية، وأول ما نطق به هو: «إني»، والياء هنا: ياء التعلق والربط (بالمبدأ الأول والخالق)، تنافي الاستقلالية والإبليسية الموجودة في «الأنا» كما في حال إبليس اللعين المبعد عن ساحة القرب الإلهي لعدم ربطه وتعلقه بالكمال، واستغنائه لجهله ومحدوديته.

ثم يصف عيسى(ع) تعريفه لنفسه بأنه عبد الله، أي في مقام العبودية لله، وأي عبودية صادرة من نبي إلى مولاه وسيده لا شك أن

(١) سورة: الأنعام، الآية: ١٦٢.
(٢) سورة: مريم، الآية: ٣٠.

العبودية هي التي تجعله يقول للشيء كن فيكون.

وقد علمنا النبي إبراهيم في القرآن منهجه مع المولى حيث يقول: ﴿أسلمت وجهي لله﴾[١].

فقد أسلم وجوده بالإجمال لله بخضوع وفناء مطلق، وهو سمانا المسلمين لهذه الخصوصية التسليم لله، وقد عبر عنها الله ﴿ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾[٢]، وهو منزّه عن الشرك الظاهري والباطني، أي لا معبود عنده سوى الله، ولا آمر ولا ناهي إلا الله، فهو منزّه عن عبادة النفس، وقد جعل الله هذه الخصوصية أيضاً في ذرية إبراهيم(ع)، حيث جعل من ذريته أنبياء كإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، ورسول الله، والأئمة من آل بيت محمد ﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾[٣]، ﴿ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾[٤].

فمن ظلم نفسه مثقال ذرة لا يكون إماماً والإمامة هي من أعلى المناصب حيث يكون للإنسان الولاية الإلهية على الكون وعلى الناس (ومن البديهي أن الولاية على الناس ولاية على الكون لأن الكون مستمد للإنسان وفي هذا كلام طويل).

(١) سورة: آل عمران، الآية: ٢٠.
(٢) سورة: الأنعام، الآية: ١٦١.
(٣) سورة: البقرة، الآية: ١٢٤.
(٤) سورة: البقرة، الآية: ١٢٤.

إزالة الحجب:

إن الحجب التي تحجب الإنسان عن الله منها ما اكتسبه الإنسان في عالم الدنيا، ومنها ما اكتسبه قبل ذلك.

أما الحجب التي اكتسبها في الدنيا فهي من جراء الوراثة، والبيئة، والتربية، والنمو الشخصي، والذنوب وتبعات الذنوب.

أما الحجب التي اكتسبها قبل ذلك، فهي في عالم الذّر حيث أشهد الله بني آدم على أنفسهم بربوبيته، فمنهم من شهد ومنهم من تأخّر في الشهود، وكل تأخير أعاق الإنسان على معرفة ربه جعل بينه وبين الله حجاباً.

﴿وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ومن ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين وإنما أشرك آباؤنا من قبل أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾[1].

وإن عملية الإشهاد هنا هي لله والله هو الكمال المطلق، فبعد أن شهد الناس جميعاً لله فإنّ هذه الشهادة تُعتبر معرفة الناس بالله، وهذه المعرفة بما أنها ذاتية فهي حضورية ولكن التأني في الشهود والتأخير جعل على هذه المعرفة حجباً وخرجوا إلى الدنيا لا يعلمون

(١) سورة: الأعراف، الآية: ١٧٢ - ١٧٣.

شيئاً من العلم الحصولي آية: ﴿أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا﴾(١).

وهذا العلم ليس بالعلم الحضوري الذي يحمله الإنسان بفطرته لكن كما قلنا إنّه علم محجوب بحجب عالم الذر.

ولكن الأنبياء العظام منزهون عن تلك الحجب في العالمين عالم الدنيا والذر لسرعة تلبيتهم لنداء الله بالشهادة له بالربوبية المطلقة.

وهذا النبي عيسى (ع) منذ اللحظة الأولى التي ولد فيها يشهد لنفسه بالعبودية والنبوة وعلم الكتاب ﴿إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾(٢).

فها هو قد اعترف لله بالعبودية منذ اللحظات الأولى، بل بالكتاب والنبوة وهذا يستلزم معرفة تامة والمعرفة التامة منزهة عن الحجب، لذلك فإنّ كل توجه لله بالعبودية هو إزالة حجب.

الحجب الظلماتية:

إن بيننا وبين الله سبعين ألف حجاب من الظلمة، وسبعين ألف حجاب من النور، فكل هذه الحجب تقف حاجزاً بيننا وبين الله ورؤيته جلّ وعلا.

---

(١) سورة: النحل، الآية: ٧٨.

(٢) سورة: مريم، الآية: ٣٠.

الحجب الظلماتية: هي كل هذه الميول الحيوانية والشهوانية وكل أنواع الذنوب وتبعاتها، ويستطيع الإنسان الارتفاع عن هذه الحجب بخلع الرذائل والقيم اللاأخلاقية والاستغفار والتوبة، وفي هذه الحجب كل الصفات السلبية والنقص والفقر والحرمان السلبي الذي يعيق الإنسان من الوصول للكمال المطلق.

الحجب النورانية:

أما الحجب النورانية فهي مرتبطة بحقيقة النور المطلق. يث يذكر لنا د.محمد خاقاني في شرح من دروس الفلسفة الإسلامية:

«بأن الله تبارك وتعالى يعتبر نوراً مطلقاً في الرؤية العرفانيّة، الله نور السموات والأرض وهذا النور مطلق لأنه موجود مطلق فنورانية النور المطلق لا تسمح له أن يُبصر من قبل الآخرين بشكل مباشر، فلا بد من تقليل وتضعيف هذا النور حتى تتم إمكانية رؤيته بشكل غير مباشر، كاستعمال النظارات السوداء عند رؤية النور القوي (مثل الشمس) فالله سبحانه وتعالى محجوب ببعض الحجب أو ببعض السحائب التي تقلل من شدة هذه النورية لكي يتمكن أفراد الناس الواقعين في مقر الطبيعة من رؤية هذا الضوء الشديد المطلق. إذن ليست مسألة الحجب نابعة من بخل الله سبحانه وتعالى عن الناس، بحيث أنه حرمهم من رؤيته، وإنما تفضّل عليهم ومن عليهم بأنه قلل

ذلك النور المطلق، بتجاوز هذه الحجب المختلفة ولأن هذا الضوء الضعيف أصبح ضعيفاً بحيث نتمكن من التقاطه، فالمشكلة مشكلتنا فنحن يجب أن نخترق هذه الحجب ونرتفع إلى الأعلى بالممارسة والتهذيب والتقوى. سواء بالفكر أو بالعمل الصالح يستطيع الإنسان أن يتمكن شيئاً فشيئاً من استقطاب نور أقوى وأقوى من الله تبارك وتعالى وهذا يتم عبر حذف هذه الحجب والتي تقسم إلى قسمين.....».

ما إن يرتفع الإنسان عن الحجب الظلماتية لا يتصل بالله تبارك وتعالى مباشرة وإنما يقف أمام جمع غفير من الحجب النورانية يعني بعد الارتفاع عن القبائح والرذائل النفسية لا بد له من الارتفاع حتى يتجاوز القيم، لأن كل قيمة أخلاقية ومع أنها تعتبر نوراً ولكن النور الضعيف هو أيضاً حجاب لرؤية النور القوي.

والحجب النورانية تشمل كل المواصفات الإيجابية الأخلاقية من العلم والفضيلة والدرة وحتى التقوى هنا بحد ذاتها قد تعتبر شيئاً سلبياً هنا والعلم بحد ذاته يعتبر أكبر قيمة إلهية موضوعة في نفسية الإنسان ومع أنه يقال: (إن العلم نور يقذفه الله فيقلب من يشاء) وحسبما يقول المتكلمين: إن العلم هو من الصفات الذاتية الإلهية التي تحتل الصدارة (العلم - القدرة - الحياة ثم...) هذا العلم والذي هو أكبر مِنة من الله سبحانه وتعالى على الإنسان قد يكون بحد ذاته حجاباً لله تبارك وتعالى.

فإذن القيم هي وسائط وآليات تساعدنا وتمهد الطريق للتقرب من الله تعالى، ولكن لا يمكننا اعتبار هذه القيم هي كل شيء، فالله سبحانه وتعالى أسمى من كل القيم التي تتصور كالعلم والقدرة والحياة، ومرحلة الغيب المطلق هي مرحلة أسمى بكثير من كل الأوصاف أو القيم التي نطلقها على الله، إذاً معرفتنا بالله تتم وتجري في عروق الإنسان ونفسه عبر القيم ولكنها حجب نور نورانية.

لماذا يحتجب الله سبحانه وتعالى وراء كل هذه المجموعة الكثيرة من القيم ؟ ليس لأنه يحرم الإنسان من رؤيته، بل لأن الإنسان ليس قابلاً وليس مؤهلاً لرؤية النور المطلق بشكل مباشر فلا بد لهذا النور المطلق من أن يتضاءل حتى يستقر في عين الإنسان الضعيف وبالممارسة وبالتمرين والتدريب، بإمكان الإنسان أن يتقوى لاستقطاب النور المطلق شيئاً فشيئاً. مثل بعض الرياضيين في الهند يحاولون بالتمرين رؤية الشمس كعملية رياضة نفسية تتم بممارسة صعبة جداً، وهكذا يروض الإنسان نفسه على رؤية الشمس شيئاً فشيئاً بشكل أقوى. وكذلك الضوء الإلهي بما أنه قوي، فلا بد للإنسان من تدريب ومحاولة تعويد النفس تدريجياً لاستقطاب القدر الأكثر من النور، وبهذا يمكن تجاوز الحجب فقط.

الفصل الخامس

سـبل النجـاة

حبل الله:

إن الله (قد ترك لنا وسائط وسبلاً للوصول إليه وإزالة الحجب، ولكي يحفظ الناس جميعاً أنزل عليهم كتاباً وبعث إليهم رسلاً، وشريعة خاتم الأنبياء) محفوظة بالكتاب وعترة أهل البيت(ع) «إني تاركٌ فيكم الثقلين ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وعترة أهل بيتي فإنّهما لن يفترقا أبداً حتى يردا علي الحوض»[١].

وقد قال الله: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾[٢]، وهو الحبل الممدود من السماء إلى الأرض من سماء الوحدة المطلقة، إلى أرض الكثرات المطلقة من أعلى عليين إلى أسفل سافلين وهو مقام الهبوط والبعد عن مقام العندية ﴿وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله﴾[٣].

ومن أراد النجاة عليه التمسك بحبل الله حيث القرآن وعترة أهل البيت اللذين هما أساس الشريعة وجوهرها، وهما لن يفترقا حتى يردا الحوض لذا لا بد لمن أراد الالتزام بالعبودية ولأوامر الله من الشريعة، فإنّ الشريعة هي الطريق الوحيد حيث فصلت البرنامج الكامل للإنسان وجميع الأحكام «حتى الخدش في الإرش»[٤].

---

(١) البحار: مجلد: ٢، ص ١٠٠، رواية: ٥٩، باب: ١٤.

(٢) سورة: آل عمران: الآية: ١٠٣.

(٣) سورة: الزخرف، الآية ٨٤.

(٤) الكافي: مجلد: ١، ص ٢٣٨، رواية: ١.

فهذه الشريعة قد قسمت أحكامها التكليفية ما بين واجب وحرمة ومستحب وكراهية وإباحة.

الوجوب: هو إرسال مع عدم الرخصة في الترك.

الحرمة: هو إمساك مع عدم الرخصة في الفعل.

الاستحباب: هو إرسال مع رخصة في الترك.

الكراهية: هو إمساك مع رخصة في الفعل.

الإباحة: تجيز الإرسال أو الإمساك للمكلف دون ترجيح في الفعل أو الترك.

وإن الالتزام هو التزام بالأوامر الإلهية والنهي عن محارمه ولا يتم الالتزام إلا بالتمسك بالثقلين كتاب الله وعترة أهل البيت لأنهما قاعدة الشريعة التي هي المنهاج وسبل النجاة.

كتاب الله:

القرآن هو نسخة عن عالم الوجود وتنطوي فيه جميع الحقائق الوجودية وهو ليس محدوداً بزمن دون زمن بل له شمولية زمانية وإحاطة مكانية وفناء في الإرادة الإلهية وهو تجلي الرحمانية والرحيمية الإلهية، وهو الصوت الإلهي المدوي في الوجود وعلة نزوله منذ ١٤٠٠ سنة، هو لخروج الإنسان الكامل الذي له القابلية المطلقة ليسمع كلام الوجود.

القرآن الحقيقي هو الكامن في نفس الإنسان الكامل أو الموحد الحقيقي.

للقرآن أسماء عدة ومنها: القرآن - الفرقان - الكتاب - النور - الهدى - الذكر - الحكمة - الشفاء - الحق - الروح.

إن القرآن في اللغة بمعنى الجمع والفرقان بمعنى الفرق والتفصيل قال تعالى:

﴿إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إنّ علينا بيانه﴾[١].

القرآن اصطلاحاً: الكتاب المنزل على النبي الأكرم(ص) .

مفهوم القرآن الجزئي الذي بين أيدينا هو الفرقان، والقرآن بما هو قرآن الكلي فلا يعرفه إلا النبي(ص)، وهذا الأمر ليس حصرياً للرسول دون سواه، بل لكل إنسان قادر على أن يصل إلى أعلى مدارج الكمال حتى يتحقق بحقيقة القرآن وما عليه إلا إزالة الحجب بالطاعة والعبودية.

بين القرآن والفرقان وسائط ومفاهيم كالتي بين الإنسان والجوهر لا يعرف حقيقة القرآن إلا الإنسان الكامل «إنما يعرف القرآن من خوطب به»[٢].

فمن استطاع أن يزيل الحجب من النفس ذات القابلية المطلقة

---

(١) سورة: القيامة، الآية: ١٧ - ١٨ - ١٩.

(٢) الكافي: مجلد: ٨، ص ٣١١، رواية: ٤٨٥، باب: ٨.

يستطيع أن يسمع أو يرى حقيقة القرآن عن النبي(ص) «لولا تكثير في كلامكم وتمريج في قلوبكم لرأيتم ما أرى ولسمعتم ما أسمع»[١]، «لولا الشياطين يحومون حول قلوب بني آدم لرأوا ملكوت السموات والأرض»[٢].

وهناك نماذج وصلت إلى أعلى المقامات باتباع النبي(ص) كالإمام علي(ع) « يا علي إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلا أنك لست بنبي»[٣].

القلب الإنساني هو مهبط وحي الله، فمن استطاع تنظيف القلب من الأمراض والرذائل «في قلوبهم مرض..»[٤]، استطاع أن يأتي الله بقلب سليم، ويكون بيت الله «بل يسعني قلب عبدي المؤمن»[٥].

ومن أسمائه: النور، والنور إشارة إلى حقيقة مجردة وهو النور القلبي والعقلي الذي يكشف حقائق الأشياء وهناك تلازم بين حقيقة النور وحقيقة العلم الذي هو كشف المجهول «وليس العلم بكثرة التعليم، إنما هو نور يقذفه الله في قلب من يريد أن يهديه»[٦]، وهي إنارة القلب. والنور إما أن يكون من الأسفل إلى الأعلى أو من الأعلى

---

(١) طهراني، محمد حسين: رسالة لب اللباب، ترجمة نور الدين عباس، بيروت: دار التعارف، ط١، ١٤١٣هـ، ص ٣٤.

(٢) طهراني، محمد حسين: رسالة لب اللباب، ترجمة نور الدين عباس، بيروت: دار التعارف، ط١، ١٤١٣هـ، ص ٣٤.

(٣) البحار: مجلد: ١٤، ص ٤٧٦، رواية: ٥٧، باب: ٣١.

(٤) سورة: البقرة، الآية: ١٠.

(٥) الخميني، روح الله: الأربعون حديثاً، بيروت: دار التعارف، ط٤، ١٩٩٢، ص ٦٧.

(٦) البحار: مجلد: ٧٠، ص ١٤٠، باب: ٥٢.

إلى الأسفل «نور يقذفه الله في قلب من يشاء»[١]، من الأعلى إلى الأسفل من القلب إلى العقل إلى الخيال إلى البدن. أما قوله: ﴿يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾[٢]، فهو النور من الأسفل إلى الأعلى والنور في الأسفل، أي من المحسوس حيث يجرده إلى الخيال فيجرده إلى المعقول فالمحسوس يعد الأجواء إلى المتخيل والمتخيل يعد الأجواء إلى المعقول، والمعقول يجرده إلى المطلق ويعد الأجواء له ذلك قوله: ﴿قد جاءكم من الله نور﴾[٣].

ومن أسمائه الكتاب ﴿كتاب فصلت آياته﴾[٤]، ﴿تنزيل الكتاب لا ريب فيه﴾[٥].

الكتاب هو كلام الله المجرد الذي تنزل عبره العوالم حتى تؤطّر في قوالب الألفاظ والكلمات المكتوبة، والكتاب بمعنى الثبات والاستقرار يسمى كتاب لأنه يسجل المفاهيم والكتاب هو استقرار المفاهيم والحقائق في أدنى مرتبةٍ من الوجود في عالم الطبيعة وكلما ارتفعا كلما تجرد هذا الكلام حتى يصل إلى معدنه ومنبعه شيئاً فشيئاً إلى مرتبة الإطلاق.

وفي مرتبة الإطلاق يكون العلم إجمالياً وكلما تنزل وقع التفصيل حيث نصل إلى عالم الطبيعة حيث التفصيل المحض ولكن الإنسان

---

(١) البحار: مجلد: ٧٠، ص ١٤٠، باب: ٥٢.
(٢) سورة: البقرة، الآية: ٢٥٧.
(٣) سورة: المائدة، الآية: ١٥.
(٤) سورة: فصلت، الآية: ٣.
(٥) سورة: السجدة، الآية: ٢.

الكامل هو جامع للعلم الإجمالي التفصيلي «جوامع الكلم[١].

ومن أسمائه الحكمة ﴿وأتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾[٢].

والحكمة هي البساطة، وعدم التركب والتكثر والحكمة هو أن يصل الإنسان إلى أن يرى حقيقة الوجود بسيطة، وأن يرى العالم بعينين العين اليمنى حيث يرى الوحدة في عين الكثرة والعين اليسرى حيث يرى الكثرة في عين الوحدة فيرى العالم وحدة في عين الكثرة وكثرة في عين الوحدة.

وذلك قوله: «كان أخي موسى عليه السلام عينه اليمنى عمياء، وكان أخي عيسى عينه اليسرى عمياء وأنا ذو العينين»[٣].

وكان عيسى مجذوباً للوحدة حيث عكست هذا على حياته، حيث كان سيره في الوحدة في عين الكثرة تفضيلا وكان موسى مع مجتمعه يرى الكثرة في عين الوحدة.

ومن أسمائه الشريفة الروح ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾[٤].

الروح قريبة من الرياح وهي اللطافة في المادة وهي النفحة أيضاً. وهو تنزل المطلق إلى عالم الملك (الطبيعة) يستخدم كلمة تنزل من المجرد إلى المادة لأنه تنزل تدريجي من اللطافة إلى الكثافة حيث

---

(١) البحار: مجلد: ٨، ص ٢٧، رواية: ٣١، باب: ٢٠.

(٢) سورة: ص، الآية: ٢٠.

(٣) الخميني، روح الله: اشرح دعاء السحر، بيروت: مؤسسة الوفاء، ط٢، ١٩٨٢، ص ١١٣.

(٤) سورة: الشورى، الآية: ٥٢.

للمادة درجات في اللطافة والكثافة.

أمرنا: هو عالم الأمر وعالم الأمر هو (من أين) أو المصدر للروح ﴿قل الروح من أمر ربي﴾[١]، أي من عالم الأمر وعالم الأمر هو عالم التقدير والمقادير حيث تتنزل إلى عالم العين أي عالم المادة العينية وعالم الأمر هو عالم الجبروت وعالم العين هو الناسوت وبينهما برازخ، وعالم الملكوت.

ومن أسمائه الهدى ﴿هدى للمتقين﴾[٢]، ﴿ذلك هدى الله يهدي به من يشاء﴾[٣]، والهداية بمعنى القيادة والقيادة هي توجيه الشيء نحو جهة ما ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾[٤]، والأقوم أي الأكمل أعلى المراتب والعوالم وكما ذكرنا إن القرآن هو حبل الله الممدود من سماء الكمال المطلق والسعادة المطلقة إلى أدنى مراتب الكمال وهو هو عالم الناسوت أو الدنيا.

ومن أسمائه الذكر: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون﴾[٥].

الذكر هو بلورة المفهوم وترسيخه أي تجسده في الأذهان، وبما أن حقيقة القرآن هي الحقائق الغيبية المجردة فتبدأ بعملية الذهن، ثم تبلوره فكراً ثم تبلوره حباً في القلب وتمسكاً. والترديد الدائم لا يخرجان الوعي إلى اللاوعي. في الذكر المستمر ندرك باستمرار أن

(١) سورة: الإسراء، الآية: ٥٨.
(٢) سورة: البقرة ، الآية: ٢.
(٣) سورة: الزمر، الآية: ٢٣.
(٤) سورة: الإسراء، الآية: ٩.
(٥) سورة: الزخرف، الآية: ٤٤.

الله حاضر في كل مكان والمراتب إطلاق يجعله مع كل الأشياء وليس بشيء منها.

ومن أسمائه الشفاء: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى و شفاء﴾[١]، والشفاء هو من كل الأمراض والرذائل. والأمراض أنواع، منها عقلي ومنها قلبي ومنها ذهني ومنها مادي. وكلما تعبأ المفهوم والحقيقة القرآنية في نفس الإنسان، وفي كل مرتبة منه أزيلت أمراض الوهم والعدم والماهيات والحدود، وانتُشل الإنسان من المرض إلى الشفاء المطلق.

ومن ألقابه الحق: ﴿بل هو الحق من ربك ...﴾[٢]، والحق هو الحقيقة أكثر من الحقيقة. الحقيقة على وزن فعيلة، والحق على وزن فعل، وهو المصدر و الأصل، أي أن هذا القرآن هو مصدر الحقائق والحقيقة المطلقة.

﴿لا يمسّه إلا المطهرون﴾[٣].

لكل إنسان طهارة متفاوتة حسب تأثره و استيعابه و حجبه. فالإنسان الكامل هو الطاهر المطلق و ليس يدنسه أي حد أو قيد. ثم تتفاوت الطهارة من شخص لآخر. و كما ذكرنا إن المعرفة المطلقة أو المساس بجوهره لا يعرفه إلا الإنسان الكامل، لذلك فلا يستطيع الإنسان التحقق بالقرآن أو بحقيقة القرآن إلا من خلال الإنسان الكامل.

﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾[٤].

---

(١) سورة: فصلت، الآية: ٤٤.

(٢) سورة: السجدة الآية: ٣.

(٣) سورة: الواقعة، الآية: ٧٩.

(٤) سورة: النحل، الآية: ٨٩.

أبعاد الكتاب :

يتميز هذا الكتاب بأبعاده الشمولية والغيبية والغائية.

١-البعد الشمولي:

﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾[١]. يعني صلاحية هذا الكتاب لكل زمان ومكان، فهو حاضر بتفاسير عدة، وله من الليونة بحيث يواكب حركة الزمن أو الامتداد الجغرافي، وفيه المعارف الحقيقية (العلمية، الفلسفية، العرفانيّة...)

وفيه المعارف الأخلاقية الفاضلة (مواعظ، حكم، عبر، دعاء، أدب...).

وفيه الأحكام التشريعية (الفردية، الاجتماعية، قضائية، تنفيذية)

وفيه الأخبار الغيبية (المعاد، المستقبل، و ما سيكون ...)

وفيه أخبار و قصص الأنبياء

وفيه المعارف اللغوية و البلاغة.

وقد تحدى القرآن المريبين و المشككين بتحديات عدة:

١ - تحدى بالعلم.

٢ - تحدى بالنبي الأمي.

٣ - تحدى بالإخبار عن الغيب.

---

(١) سورة: الأنعام، الآية: ٣٨.

٤ - تحدى بعدم الاختلاف فيه.

٥ - تحدى ببلاغته ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾[١].

٢- البعد الغيبي:

﴿نزل عليك الكتاب بالحق﴾[٢]، ﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾[٣].

مصدر هذا القرآن أحد العوالم الغيبية المطلقة، وعالم القرب الإلهي و نزل شيئاً فشيئاً عبر العوالم. والقرآن هو الكلام الإلهي وعند تنزله أصبح الكتاب (أن الله تبارك و تعالى لسعة رحمته بعباده أنزل هذا الكتاب الشريف من مقام قربه وقدسه، وتنزل حسب تناسب العوالم حتى وصل إلى هذا العالم الظلماني، وسجن الطبيعة وصار على كسوة الألفاظ وصورة الحروف لاستخلاص المسجونين من سجن الدنيا المظلم وخلاص المغلولين بأغلال الآمال والأماني وإيصالهم من حضيض النفس والضعف والحيوانية إلى أوج الكمال والقوة الإنسانية ومن مجاورة الشيطان إلى مرافقة الملكوتيين، بل الوصول إلى مقام القرب و حصول مرتبة لقاء الله التي هي أعظم مقاصد أهل الله ومطلبهم»[٤].

٣ - البعد الغائي:

الغاية التي أنزل لها القرآن (الفقرة السابقة) من (الاستخلاص .... إلى - مطلبهم). «وإن الغاية المطلوبة فيه تعلم وارتقاء البدن من

---

(١) سورة: الأنعام الآية: ٣٨ .

(٢) سورة: آل عمران، الآية: ٣.

(٣) سورة: الإسراء، الآية: ١٠٥.

(٤) الخميني، روح الله: الآداب المعنوية للصلاة، ص ٣٢٣ .

حضيض النقص و الخسران إلى أوج الكمال والعرفان، وبيان كيفية السفر إلى الله طلباً لمرضاته ولقائه ومجاورة لمقربيه و تنعماً للروح السعيدة في حضرة ملكوته وانسراحاً للنفس في روضات جنانه و نجاةً لها من دركات الجحيم»[1].

البعد التوحيدي:

وأصول هذه المهمة هي:

١ - معرفة الله وصفاته وأفعاله النبوة والإمامة والولاية والمعاد.

٢ - معرفة الصراط المستقيم أي طريق العبودية ودرجاته وكيفية السير والسلوك عليه وعدم الانحراف.

والأولى معرفة المفاهيم النظرية والثاني معرفة المفاهيم التطبيقية.

أقسام التوحيد:

وفي المعرفة الأولى يتطلب من الإنسان الوصول إلى حقيقة التوحيد عبر معرفة الله بأفعاله وأسمائه وذاته فيكون هناك توحيدٌ أفعاليٌ صفاتيٌ ذاتيٌ.

١- التوحيد الأفعالي:

أول مراتب التوحيد أن يدخل الإنسان أفعاله في أفعال الله بأن لا يكون للإنسان استقلالية في الفعل بل يكون الفعل من الله ﴿وما رميت

---

(١) صدر المتألهين، الشيرازي: أسرار الآيات، ص ٢١ .

إذ رميت ولكن الله رمى﴾[١]، وعندما يدرك الإنسان أنه لا مؤثر في الوجود إلا الله، فلا فعل ولا حركة تصدر إلا منه وهو قد أذن بها ضمن قوانين وأسباب معينة تسمى عندها هذه المرحلة التوحيد الأفعالي وهي أدنى مرحلة من مراحل التوحيد.

٢- التوحيد الصفاتي:

عندها يرتقي الإنسان لما بعد الفعل فيعرف أن منشأه الصفات، ولا يمكن أن يكون هناك صفة متحققة في الوجود إلا وهي لله « وإنه يوجد في كل العوالم عالم واحد وقادر واحد وحي واحد»[٢].

وهذه المرتبة من التوحيد هي التوحيد الصفاتي حيث يرجع الموحد جميع الصفات إلى الله ولا يرى فصلاً بين صفة وأخرى. وهذه المرتبة تتوسط بين الذات والفعل[٣].

٣- التوحيد الذاتي:

وهنا تذوب الأفعال والصفات فلا يرى الموحد إلا الله، وهنا يدرك الموحد وحدة الوجود، والتوحيد الذاتي هو أن يدرك العارف أن كل شيء فانٍ في ذات الله ﴿كل من عليها فان﴾[٤]، يعني هو الآن فان، ولن يفنى تدريجياً لأن الفناء هو أن يكون محاطاً بالمطلق فهو فان في المطلق أن يفنى في الله أي نفهم أن لا ذات لنا بل الله هو الوجود في المطلق

---

(١) سورة الأنفال، آية ١٧ .

(٢) طهراني، محمد حسين: رسالة لب اللباب، ترجمة نور الدين عباس، بيروت: دار التعارف، ط١، ١٤١٣هـ، ص ٣٢ .

(٣) من لا يحضره الفقيه، مجلد: ٢، ص ٦٢٧، رواية: ٣٢١٥، باب: ٢ .

(٤) سورة الرحمن، الآية ٢٦ .

وهذه حقيقة التوحيد.

معرفة النبوة والولاية والمعاد

السير والسلوك أو تهذيب النفس والعبودية.

المعرفة التطبيقية كما سيأتي ذكرها إن شاء الله.

تقسيم الكتاب:

يقسم هذا الكتاب الشريف إلى سور وآيات، وبما أن القرآن هو عالم الوجود فيمكن أن نقسم هذا الوجود إلى عدة سور، كما أن السور تحتوي على عدد من الآيات والسورة تأتي من كلمة سور، والسور هو الذي تقع خلفه المدينة، فخلف السورة تقع مرتبة من مراتب الوجود حتى تصل إلى أعلى مراتب الوجود من حيث أنزل القرآن فكل سورة تفتح لنا مدناً من الوجود، وعوالم منها ودرجات هذه السور الآيات. عن النبي(ص) «إن في الجنة من الدرجات إلا بعدد آيات القرآن الكريم»[1]، والآية بمعنى العلامة والعلامة هي التي تشير إلى مقصدها وبما أن الإنسان له رحلة مطلقة في الوجود فلا بد له من علامات في هذا الوجود لترشده وبما أن الرحلة تصاعدية، فإن العلامات درجات أي من الآيات درجات تصاعدية «درجات بعدد الآيات «وفي مضمون الحديث أنه يؤتى بقارئ القرآن فيقال له: «إن لك

(١) من لا يحضره الفقيه، مجلد: ٢، ص ٦٢٧، رواية: ٣٢١٥، باب: ٢ .

بكل آية درجة من الجنة».

أو عندما تتجلى للمؤمن يوم القيامة الآيات بشكل درجات جميلة من الوجود وفي الجنة فيقول لهذه الدرجة: «من أنت؟ فتجيبه: أنا الآية كذا كذا لو كنت أحصيتني كنت لك. فيقول: يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله».

وهذه المراتب والدرجات مساوية بجميع القرآن حتى تصل إلى أعلى جنة وهي جنة الله ﴿فادخلي جنتي﴾[١]، والياء هنا إشارة إلى خصوصية هذه الجنة بأنها جنة الله، وهي مقام الإنسان الكامل وكما عرفنا أن الله هو الوجود المطلق، فقد تجلى لنا الله بالقرآن عن علي(ع) «لقد تجلى الله لخلقه في كلامه ولكنهم لا يبصرون»[٢]، فكل كمال موجود في القرآن والحقيقة والغاية المنشودة النهائية موجودة في القرآن وليست موجودة وجوداً مقيداً بل وجود تحقّق له. الإطلاقية الموجودة في الهدف والقرآن أن حقيقة القرآن والوجود والإنسان الكامل هي حقيقة واحدة وهي مظهر الحق جلّ وعلا أو مرآة الكمال المطلق.

والقرآن هو بحر الوجود «إن للقرآن ظهراً وباطناً، ولبطنه بطن إلى سبعين بطناً»[٣]، «وهو مأدبه الله في خلقه»[٤].

---

(١) سورة: الفجر، الآية ٣٠ .

(٢) البحار، مجلد ٩٢، ص ١٠٧، رواية: ٢، باب: ٩ .

(٣) البحار، مجلد ٥، ص ٢٣١، رواية: ٦، باب: ١٠ .

(٤) البحار، مجلد ٩٢، ص ١٩، رواية: ١٨، باب: ١ .

وقال: «من القرآن غنى لا غنى دونه، ولا فقر بعده، وقال من القرآن مأدبة الله فتعلّموا مأدبته ما استطعتم، إن هذا القرآن هو حبل الله وهو النور المبين والشفاء النافع فاقرؤوه فإن الله عز وجل يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات، أما أني لا أقول الم حرف واحد، ولكن ألف ولام وميم ثلاثون حسنة»[١].

وفيه السير والسلوك ولا يتم إلا من خلال القرآن وهذا القرآن هو الإنسان الكامل.

الإنسان الكامل:

الإنسان الكامل هو خليفة الله في الأرض وكما أشرنا أن الخليفة هو الذي يخلف الله في صفاته وأسمائه[٢]، وبما أن الأرض هي مرتبة القرار والاستقرار المتنزل من الله، تصبح خلافة الإنسان الكامل هي الخلافة السارية في جميع مراتب الوجود، أو كما يقال هو حاصر في جميع المراتب ويعبر عنه أيضاً بالآية العظمى أو المرآة، وكثيراً ما يستخدم كلمة المرآة ولكن المنطق القرآني استخدم لفظة آية، كما أشير إليه بالنبأ العظيم والنبأ هو خروج الشيء من الخفاء إلى العلن، وكذلك الإنسان الكامل خروجه من مرتبة البطون إلى مرتبة الظهور

(١) البحار، مجلد ٩٢، ص ٠١٩، رواية: ١٨، باب: ١ .

(٢) راجع الفصل الثالث من الباب الثاني (حقيقة الفيض الإلهي)، (الرسالة نفسها).

في ساحة الوجود ليكون نبأً عن الله (أي حكاية عنه).

المرآة:

استخدم تعبير المرآة للخصوصية التي تقوم بها من نقل الصورة والشكل بنحو واضح إلا أن الرائي هو نفس المرئي شكلاً، وليس هناك وجود إلا للرائي وصورته المرئية وتوسط تلك المرآة، فلا حقيقة إلا للرائي وما المرئي إلا ظل وحكاية الرائي.

الآية استخدمت في القرآن لتدل على حقائق وجودية (تكوينية كانت أم تشريعية).

﴿لئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية﴾[١].

﴿ولنجعلك آية للناس﴾[٢].

﴿قال رب اجعل لي آية﴾[٣].

﴿وآية منك﴾[٤].

﴿لولا نزل عليه آية من ربه﴾[٥].

﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾[٦].

---

(١) سورة: البقرة، الآية: ٤٥.

(٢) سورة: البقرة، الآية: ٢٥٩.

(٣) سورة: آل عمران، الآية: ٤١.

(٤) سورة: المائدة، الآية: ١١٤.

(٥) سورة: الأنعام، الآية: ٣٧.

(٦) سورة: الأعراف، الآية: ٧٣.

﴿كأين من آية في السموات والأرض﴾[١].

﴿فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة﴾[٢].

كلمة آية:

أطلقت على حقائق وجودية منها ما هو تكويني ومنها ما هو تشريعي. فكل ما هو متحقق في الوجود تكوينياً هو آية من آيات الله، ولكن يختلف من حيث السعة وتجلي الأسماء والصفات الإلهية فيه، فكل ما هو موجود ومتحقق الوجود هو آية لسريان الصفات الإلهية فيه.

وكل ما هو حقيقة تشريعية صادرة من المولى فهو آية من آياته، باعتبار أن كل أمر تشريعي هو صادر إما من آياته التامة (الرسول أو النبي) أو آياته في الكتاب (القرآن أو سائر الكتب المنزلة) أومن آية العقل وهذه المصادر الثلاث هي آيات في التشريع.

ولكن مرادنا في هذا البحث هو تبيان أن الإنسان الكامل هو الآية الكبرى أو العظمى، لاحتلاله صدارة الرتب في عالم الوجود فيصبح هو الآية الأولى المهيمنة على باقي الآيات. ﴿ولنجعلك آية للناس﴾[٣].

أما الفرق بين لفظة آية ولفظة مرآة ولماذا لم تستخدم لفظة مرآة

---

(١) سورة: يوسف، الآية: ١٠٥.

(٢) سورة: الإسراء، الآية: ١٢.

(٣) سورة: البقرة، الآية: ٢٥٩.

في القرآن هو أن المرآة تقوم بالتوسط بين الرائي والمرئي أما الآية فهي الإشارة المباشرة إلى مصدرها أي ليس لها كيان مستقل مرآة وصورة في المرآة. وهنا إشارة إلى الفناء بطريقة ما، أي أن الإشارة أو الآية لا استقلالية لها بل هي عين التعلق بالمشار إليه.

ومن أسماء الإنسان الكامل «الصراط» لقد ذكرنا سابقاً أن العبودية هي الصراط المستقيم الذي نطلب يوماً الهداية إليه. والعبودية هي الطاعة المطلقة للمعبود وطاعة المعبود تقسم إلى نوعين طاعة تكوينية وطاعة تشريعية.

أما الطاعة التكوينية فلا يعصيه فيها أحد «وإن كان فيه كلام»[١]، الطاعة التشريعية يمكن المعصية فيها وذلك لوجود الوسائط الكثيرة، وبعد المسافة التشريعية عن المشرع الأصيل «الأول من الله إلى النبي إلى الإمام إلى الفقيه إلى العالم إلى المكلف هذه المسافة هي التي تجعل المعصية محتملة وإلا لو كانت صادرة من المصدر الأول مباشرة لما تجرأ أحد على المعصية»[٢]، ولكن شرط صدورها من المصدر الأول هو

---

(١) يمكن التمرد تكوينياً كتغير أمور كثيرة في الأرض أو في الإنسان نفسه ( ) وكل ما هو واقع تحت سيطرة الإنسان من جماد أو حيوان أو نبات فهو واقع تحت ولايته وإن كانت اعتبارية ولكنه قادر على الإخلال بهذا الأمر تكوينياً. وفي رأيي الخاص أن الطاعة التكوينية مرتبطة بالتشريع فالتكوين هو ظل للتشريع وهناك أدلة كثيرة على هذا الموضوع لا يسعنا المجال لذكرها.

(٢) ذلك لأن الجلال الإلهي المتجلي على المصدر له في أقوى صورة يقهر المصدر له لا يتجرأ على المعصية وكذلك الجمال المتجلي عليه لا يستطيع مقاومته فيسعى لنيل رضاه طائعاً أو مكرها. ولكن شرط أهلية تجلي الجلال والجمال الإلهي على أحد هو أن يكون قابلاً لهذا التجلي وإلا أحترق بالجلال والجمال فلا يلقى هذا التجلي إلا من عصم نفسه وزكاها وأزاح ستار الحجب عن قلبه وانفرد بالمحبوب الأوحد.

أن يكون المصدر له إنسان كامل ومعصوم.

فالطاعة التشريعية لا تتم إلا من خلال الإنسان المعصوم بالمشرع بالاعتبار ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾[1]، لأن الطاعة بالأصالة لله وبالاعتبار للرسول وأولي الأمر.

ومن أسماء النبيﷺ(ص):

والنبي في اللغة هو الذي ينبئ عن شيء فكل مخلوقات الوجود هم أنبياء بالمعنى اللغوي لأن كل موجود ينبئ عن نفسه أو عن غيره لذلك فكلما كان النبي ينبئ عن دائرة أوسع كلما كانت له مرتبة أعلى ومشرفة، واقترب من معنى النبي الكامل الذي ينبئ عن حقيقة الوجود.

أما معنى الأنبياء اصطلاحاً: فهم الأشخاص الذين كُلّفوا من الله بإنباء البشر بأخبار الوحي أو الإلهام أو الكشف الذي يكشف لهم أو يوحي إليهم أو يلهموا به. والإنسان الأكمل هو النبي الأكمل لأنه يخبر أو ينبئ عن أكمل ما في الوجود.

الرسول: والرسول هو الذي يحمل رسالة من مرسلٍ إلى مرسل إليه. وهذه الرسالة أيضاً تكوينية وتشريعية. تكوينية هي إخبار ما في

---

(٢) سورة: النساء، الآية: ٥٩.

الوجود وتشريعية هي إيصال الإنسان إلى كمال الوجود، بمعنى أن الإنسان الكامل هو السفارة الإلهية في الأرض. واصطلاحا: هو الإنسان المكلف بإيصال رسالة الله إلى البشر.

الإمام: من أمّ لغة وهو الترؤس والقيادة والإمام يكون في مقدمة الناس أو الصلاة أو الجماعة أو الأمة أو البشرية جميعاً فكلما علت مرتبته أمّ مرتبة أعلى وكان مشرفاً على مراتب في الوجود أعلى، وهناك أسماء أخرى كالدليل والصفي والأمين وورد لفظة عبده، وبقية الله في القرآن أيضاً في حق الإنسان الكامل ومن أسمائه الحبيب، وبقي اسمان سنشرح أحدهما الآن وهو الولي والآخر في باب القابلية وهو الحجة.

الولي: فهو من يلي أي الذي يأتي فيما بعد وبما أن الولي هو الإنسان الكامل فهو ولي الله أي الذي يأتي مباشرة بعد الله اصطلاحاً. وعموماً هو الإنسان الذي يراعي الله في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله.

الفرق بين النبي والرسول والإمام: يمكن للإنسان الكامل أن يكون حائزاً على كل هذه الصفات كما النبي(ص) أو النبي إبراهيم.

والنبي كما ذكرنا هو الذي يخبر عن طريق الوحي أو الإلهام أو الكشف.

أما الرسول فهو أعلى رتبة، هو الذي يحمل رسالة إلهية للبشر.

أما الإمام فهو المكلف من الله بقيادة البشر وذلك طلب سيدنا

إبراهيم من الله عندما كان نبياً ورسولاً وخليلاً ﴿قال إني جاعلك للناس إماماً﴾[١]، فالإمام هو الإنسان المعصوم بالمطلق، أي هو الذي اختار عصم نفسه عن الخطأ، فاختاره الله إماماً لقيادة البشرية نحو العوالم اللامتناهية.

لنعُدْ إلى البحث حول مكانة الإنسان الكامل روي عن الإمام الصادق عن النبي(ص): «اعلم أن صورة الإنسانية هي أكبر حجج الله على خلقه وهي الكتاب الذي كتبه بيده وهي الهيكل الذي بناه بحكمته وهي مجموع صورة العالمين: وهي المختصر من اللوح المحفوظ وهي الشاهد على كل غالب وهي الطريق المستقيم إلى كل خير والصراط الممدود بين الجنة والنار انتهى»[٢].

فهو خليفة الله على خلقه، مخلوق على صورته متصرف في بلاده فخلع بخلع أسمائه وصفاته، نافذ في خزائن ملكه وملكوته منفوخ فيه الروح من الحضرة الإلهية، ظاهره نسخة الملك والملكوت وباطنه خزانة الحي الذي لا يموت.

ولما كان جامعاً لجميع الصور الكونية الإلهية كان مر بالاسم الأعظم المحيط لجميع الأسماء والصفات الحاكم على جميع الرسوم والتعينات»[٣].

وكما ذكرنا أن الإنسان هو الكون الجامع لجميع المراتب والأسماء

---

(١) سورة: البقرة، الآية: ١٢٤.

(٢) الخميني، روح الله: شرح دعاء السحر، ص ٢١ - ٢٢.

(٣) دروس جامعية في شرح مصباح الهداية (مادة العرفان)، د. محمد خاقاني.

﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾[١].

وكما ذكر الإمام علي(ع):

أتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العام الأكبر

فالإنسان هو السبب الأول في عالم التكوين. وتحديداً الإنسان الكامل وهو أول خلق الله وعندما سأل جابر بن عبد الله النبي (ص) عن أول ما خلق الله أجابه النبي(ص): «يا جابر أول ما خلق الله خلق نور نبيك محمد ثم خلق من نوري نور علي..»[٢]،حتى ينتهي إلى جميع المخلوقات المخلوقة من نور أهل بيت العصمة.

والحديث الثاني «نُبّئت وآدم بين الجسد والروح»[٣].

وعندما سئل الإمام الصادق(ع) كيف كنتم حيث كنتم في الأظله ؟ فقال: «يا مفضل كنا عند ربنا ليس عنده أحد غيرنا في ظلة خضراء نسبحه ونقدسه ونهلله ونمجّده وما من ملك مقرب ولا ذي روح غيرنا ا حتى بدا له في خلق الأشياء فخلق ما شاء كيف شاء من الملائكة وغيرهم ثم أنهى علم ذلك إلينا»[٤].

«إن الله أول ما خلق خلق محمد(ص) وعترته الهداة المهتدين فكانوا أشباح نور بين يدي الله، قلت: وما الأشباح؟ قال: ظلّ النور أبدان نورانية بلا أرواح واكن مؤيداً بروح واحدة وهي روح القدس فيه

---

(١) سورة: البقرة، الآية: ٣١.

(٢) البحار: مجلد: ١٥، ص ٢٤، رواية: ٤٣، باب: ١.

(٣) الطبرسي: الاحتجاج، بيروت: دار الأعلمي، ص ٤٤٨.

(٤) الكافي: مجلد: ١، ص ٤٤١، رواية: ٧.

كان يعبد الله وعترته ولذلك خلقهم حلماء علماء بررة أصفياء يعبدون الله بالصلاة والصوم والسجود والتسبيح والتهليل ويصلون الصلوات ويحجون ويصومون»[١].

وهو العقل الأول والنور الأول والصادر الأول وهو نور النبي(ص). فالنبي الأكرم هو الخليفة بالمطلق لله خلافة غير متناهية لأنه خاضع خضوعاً مطلقاً لله، وعبد بعبودية مطلقة لذلك تجلت خلافته في الواحدية والأحدية وجميع الأسماء والصفات.

وعن علي(ع): إن الله كان إذ لا كان فخلق الكائن والمكان وخلق الأنوار وخلق نور الأنوار وهو النور الذي نورت فيه الأنوار وأجري فيه من نوره الذي نورت منه الأنوار وهو النور الذي خلق منه محمداً وعلياً فلم يزالا نورين نيرين أولين، إذ لا شيء كون قبلهما فلم يزالا يجريان طاهرين مطهرين في الأصلاب الطاهرة حتى افترقا في الطهر طاهرين في عبد الله وأبي طالب»[٢].

---

(١) الكافي: مجلد: ١، ص ٤٤٢، رواية: ١٠.

(٢) الكافي: مجلد: ١، ص ٤٤١، رواية: ٩.

خاتمة:

إن الحقيقة الوجودية الكونية للقرآن الكريم وللإنسان الكامل هي حقيقة واحدة لتجسد المفاهيم القرآنية في الإنسان الكامل وذلك قول علي(ع): «أنا الكتاب الناطق»[1].

لذلك يجب أن يكون القرآن والإنسان الكامل في مكانة ومقام الأشراف والتكامل الكوني وصراط الوجود المستقيم الذي ينتشل الكون من أدنى مراتب الهيّولى إلى أعلى درجات عالم الجبروت ومنها إلى عوالم الإطلاق أو عالم الإطلاق لانتفاء الكثرة، «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»[2]، هذه الرحمة تشمل جميع العوالم وتنتشلها بواسطة الإنسان الكامل إلى أعلى درجات الوجود إلى الحقيقة الأزلية السرمدية.

لذلك كل رؤية ليس فيها القرآن والإنسان الكامل هي رؤية ضلال ورؤية ناقصة لا تبحر إلى شاطئ الحقيقة ومعدن النور،

---

(١) البحار: مجلد: ٣٩، ص ٢٧٢، رواية: ٤٨، باب: ٨٧.

(٢) سورة: الأنبياء، الآية: ١٠٧.

وكان آخر ما أوصى به النبيّ(ص): «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[1].

والحمد لله رب العالمين

(١) البحار: مجلد: ٢، ص ١٠٠، رواية: ٥٩، باب: ١٤.

تعليق على الكتاب

بقلم الأستاذ:

الكاتب محمد زكي إبراهيم

الرؤية الكونية

من المادية إلى العرفان

هذا كتاب نادر في موضوعه، جليل في مادته، جمع الفلسفة من أطرافها، وأتى على الحكمة برمتها، فتدرج من مادية صرفة لا تخرج عن دين، ولا تعترف بغيب، إلى روحانية مطلقة تكمن في القلب، وتعشعش في الوجدان!

والجمع بين هذه الفروع لا يقوم به إلا من أوتي حظاً عظيماً من المعرفة، والحكمة، والفضل. وهكذا كان الأستاذ شادي علي فقيه مؤلف هذا الكتاب، فقد دأب على تقصي مفردات الفلسفة ودقائقها ووضعها في كتاب صغير حجمه، عظيم نفعه. فأسدى بذلك إلى المكتبة العربية خدمة جليلة وهي تعاني في هذا المجال من ندرة الكتب، وقلة الباحثين.

وقد أوجز الكاتب مهمته في مقدمة البحث بقوله (إن الحديث عن الرؤية الكونية هو الحديث عن السلام والعدل العالميين، لأن جميع الخلافات والحروب ناتجة عن رؤية خاصة لهذا الكون فإذا ما وضع معيار يتفق عليه الجميع، أمكن تجنب مثل هذه النزاعات). ومثل هذا الهدف بالطبع، هو غاية ما يطمح إليه الناس في مختلف الأزمان. ولكنه - أي المؤلف - يدرك قبل غيره أنه هدف صعب المنال.

فإلى أي حد نجح الكاتب في وضع معالم هذه الرؤية؟ لقد بدأ كتابه في وضع تعريف شامل عنها حتى يكون القارئ على دراية مسبقة بما يقرأ، فذكر أنها مرادفة لمصطلحات عديدة شائعة.

مثل النظرة للعالم، أو التطور الكلي للوجود، أو النظرة إلى الكون.. وأخيراً الأيديولوجية! وهي مصطلحات كثيرة الذيوع والانتشار. فقد كتب فيها ونظر لها فلاسفة كثيرون منذ سقراط، وأفلاطون، حتى يومنا هذا. ولم يخل عصر من العصور من أيديولوجية ما يحكم على وفقها الحاكمون ويتحزب لها المتحزبون، ويختصم حولها المختصمون! فالأيديولوجية هي التي تحرك المجتمع وتديم أفعاله باتجاه معين. وهي كما يصفها الكاتب (عبارة عن مجموعة من المعتقدات والنظريات الكونية المتناسقة

حول الكون والإنسان بل وحول الوجود بصورة عامة). ورغم أن المؤلف يذهب إلى دراسة أنواع هذه التصورات الأيديولوجية التي اختار أن يسميها منذ البداية الرؤية الكونية، وتعريفها للقارئ بشكل سريع إلا أنه كان يميل ميلاً واضحاً إلى نقدها مستعيناً بمنهجه في البحث العقلي الاستدلالي. وقد حاكم هذه التصورات انطلاقاً من هذا المنهج دون هوادة. ولا يخفى أن الفكر المادي بتطوره المستمر عبر العصور قد أظهر تفاوتاً كبيراً من حيث المنهج والأسلوب. الأمر الذي مكن مناوئي هذا الفكر من النفوذ إليه، وإظهار عيوبه وأخطائه، وهو ما استفاد منه الفلاسفة الإلهيون في هذا العصر فجعلوه في صدر مقالاتهم. ويظهر ذلك بوضوح في العديد من المصادر التي استعان بها المؤلف مثل (فلسفتنا لمحمد باقر الصدر) و (حوار بين الماديين والإلهيين لمحمد الصادقي) وغيرهما.

إن كل ما جرى في العالم منذ أن وجد، وحتى هذه الساعة هو نتاج لرؤى كونية مختلفة، ولذلك فإن محاولة تقييم هذه الرؤى، على وفق منهج جديد، تعتبر من وجهة نظر الكاتب مدخلاً لفهم الحركات والسياسات والأفعال والاتجاهات الفكرية المختلفة في العالم. وقد اعتبره في البداية نتيجة حب استطلاع تمليه دوافع فطرية وغريزية على حد تعبيره إلا أنه لا يلبث أن يشدد على أن فهم العالم ومعرفته يرتبطان بقوة تعقل الإنسان لا مجرد الإحساس به. أي أنه أعطى هذا المفهوم، معنى عقلانياً ولم يحصره في مسائل كمالية.

وفي هذا السياق يضع خمسة عشر شرطاً لتكوين رؤية كونية شاملة، موصلة إلى الحقيقة. نائية بالإنسان عن التحيز والتعصبية أو سوى ذلك من الأمور. وهو لو أراد، لجمعها في كلمة واحد هي الموضوعية. ومع أن الفلاسفة، على مر العصور، قد ارتكبوا هفوات شائنة، إلا أن جميع هذه الهفوات لم تكن ناتجة عن هوى أو قصور ذهني بقدر ما كانت نتاجاً للمنهج الذي اتبعوه. وتبقى الاختلافات نتيجة حتمية لتنوع مصادر الفكر الإنساني ومناهجه.

وبعد طول تأمل واستعراض في الرؤى الكونية، ولا سيما المادية

منها - ينتقل إلى الفلسفة الدينية والعرفان الإلهي. ويبدأ في شرح وتفسير هذا الفكر الصوفي بقسميه النظري والعملي فيجعل العرفان أوسع دائرة من الفلسفة بسبب اعتماده على مصدرين اثنين: العقل (وهو أداة الفلسفة)، والقلب (أي المشاعر التي لا حدود لها). فيستخدم هاتين الوسيلتين في معرفته بالمطلق والفناء فيه.

والفكر الصوفي يجد اليوم أرضاً خصبة في كثير من البلدان، لا سيما في لبنان، ولعله وراء العديد من التطورات التي جعلت الدين ركيزة هامة من ركائز المجتمع اللبناني. ويطمح الكثير من الشباب الآن في سلوك نهج عرفاني حديث لا يختلف إلا في الظاهر عن النهج القديم. نهج لا ينزوي عن الحياة في الكهوف والجبال والصوامع كما كان يفعل من قبل. بل يفضل كثيراً أن يعتكف في مقاهي الانترنت، وأمام شاشة الكمبيوتر، وصالات الألعاب الإلكترونية! إن الثورات التكنولوجية لم تقلب مفاهيم العيش في العالم فحسب بل استطاعت أن تتسلل إلى المدارس الصوفية، وأروقة المساجد، وأماكن العبادة. وأن تجد فيها بيئة مناسبة أيضاً.

إن صغر حجم الكتاب، والتزامه بمنهج عدد، جعل من الصعب على الكاتب أن يحدد رجيه هنا وهناك. فيستفيض بالحديث عن مسائل هامة مثل العرفان الذي يمارسه أصحاب الديانات الأخرى

في الشرق. إن هناك ترابطاً واسعاً بين العرفانين الإسلامي واللاإسلامي، لا يمكن تجاهله بحال. ولكن الكاتب لا يغفل عن هذه الناحية فيحدد مقدماً أنه الرؤى العرفانية غير الإسلامية هي رؤى شاذة (غير مقبولة في بعض جوانبها لمخالفتها البديهيات العقلية أو لعدم استنادها على دليل، أو لعدم اكتمالها أو لعبثيتها أو لعدم وضوح الرؤية وعدم التوافق مع الفطرة الأصيلة للإنسان).

وهكذا، لم يعد بالإمكان إزاء كل هذه الدواعي، إلا أن يشعر المرء بعدم جدوى الربط بين الفلسفتين! أو المزاوجة بينهما. على الرغم من أن ذلك قد حدث فعلاً، وأنتج أدياناً جديدة من الشرق ذاته!

وربما يكون من الأفضل للقارئ، أن يطلع بنفسه على الكتاب، ويقرؤه بتروٍ وإمعان فيصدر أحكامه دون مؤثر من أي نوع، وأقل ما يمكن أن يقال عن جهد علمي كهذا أنه أضافه جديدة للمكتبة العربية، والفكر الإنساني بشكل عام.

محمد زكي إبراهيم

بيروت ٢٠٠١/١١/٢١

المراجع والمصادر

❖ القرآن الكريم

❖ محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني، الكافي، طبعة دار الكتب الإسلامية، طهران، الطبعة الثانية، د.ت.

❖ محمد بن يعقوب بن علي بن بابويه القمي، من لا يحضره الفقيه، (مركز البحوث الكومبيوترية للعلوم الإسلامية)، قم.

❖ العلامة المجلسي، بحار الأنوار، دار الكتب الإسلامية، طهران، الطبعة الثانية، د.ت.

❖ الإمام على بن الحسين زين العابدين، الصحيفة السجادية، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

❖ يزدي، محمد تقي المصباح، دروس في العقيدة الإسلامية، الطبعة الأولى، بيروت: دار الحق، ١٩٩٣.

❖ مطهري، مرتضى، المفهوم التوحيدي للعالم، بيروت: دار التيار الجديد، لاطبعة ١٩٨٥.

❖ الصادقي محمد، حوار بين الإلهيين والماديين، بيروت: دار المرتضى، الطبعة الثانية، ١٩٨٧.

❖ مطهري، مرتضى، الفلسفة، بيروت: دار التيار الجديد، الطبعة الأولى، ١٩٨٣.

❖ البدوي إبراهيم، فن الخطابة، بيروت: دار القول الثابت، الطبعة الأولى، ١٩٩٤.

❖ د. محمد خاقاني، بيّنات، بيروت: دار التعارف، الطبعة الأولى، ١٩٩٦.

❖ الصدر، محمد باقر، فلسفتنا، بيروت: دار التعارف، الطبعة العاشرة، ١٩٨٠.

❖ مطهري، مرتضى، العرفان، بيروت: دار المحجة البيضاء، دار الرسول الأكرم، الطبعة الأولى، ١٩٩٣.

❖ كلبيكاني، على رباني، إيضاح الحكمة، بيروت، دار الهادي، الطبعة الأولى، ١٩٩٠.

❖ طباطبائي، محمد حسين، دروس فلسفية في شرح بداية الحكمة، بيروت: دار الهادي، الطبعة الأولى، ١٩٩٠.

❖ الخميني، روح الله، الأربعون حديثاً، بيروت: دار التعارف، الطبعة الرابعة، ١٩٩٢.

❖ صدر الدين بدر بن إبراهيم الشيرازي، أسرار الآيات، بيروت: دار الصفوة، الطبعة ١٩٩٣

❖ الخميني، روح الله، الآداب المعنوية للصلاة، قم، إيران،

مؤسسة دار الكتاب الإسلامي.

❖ طهراني، محمد حسين، رسالة لب اللباب، ترجمة نور الدين عباس، بيروت: دار التعارف، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

❖ الخميني، روح الله، شرح دعاء السحر، بيروت: مؤسسة الوفاء، الطبعة الثانية.

❖ الطباطبائي، محمد حسين، رسالة الولاية، قم (قسم الدراسات الإسلامية)، ١٣٦٠هـ.ق.

❖ الأميني، محسن، منتخب الأحاديث القدسية، طهران، الطبعة الأولى، ١٩٩٠.

❖ خاقاني، د. محمد، بيّنات، بيروت: دار التعارف، الطبعة الأولى، ١٩٩٦.

❖ خاقاني، د. محمد، بيّنات، بيروت: دار التعارف، الطبعة الأولى، ١٩٩٦.

فهرس الموضوعات

مقدمة الناشر ٥

إهداء ٧

مقدمة ٩

الرؤيا الكونية

تعريف الرؤيا الكونية ١٧

أهمية البحث ١٩

هدف البحث ٢٠

لماذا الرؤيا الكونية ٢١

مدخل إلى البحث ٢٣

المصادر والأسس ٢٤

أنواع الرؤى الكونية ٢٥

معيار لتقييم الرؤيا الكونية ٢٧

الباب الأول

الفصل الأول

١ - الرؤيا الكونية الوهمية ٣٥

٢ - الرؤيا الكونية (الصدفية) ٤٠

٣ - الرؤيا الكونية البشرية ٤٣

عدم مساواة الإنسان للوجود ٤٥

الفصل الثاني
الرؤيا الكونية المادية ٥١
١ - الرؤيا المادية الاحتمالية ٥٢
٢ - الرؤية الكونية المادية الأزلية (الدهريون) ٥٤
٣ - الرؤية الكونية المادية الايجادية ٥٩
٤ - الرؤية الكونية المادية اللامتناهية ٦٢
الرؤيا الكونية المادية الديالكتيكية ٦٥
الفصل الثالث:
١ - الرؤية الكونية العلمية ٧٧
٢ - الرؤية الكونية العلمية السلبية ٧٩
الأسباب المرفوضة بالنتائج ٨٣
٣ - الرؤية الكونية العلمية الإيجابية ٨٦
الفصل الرابع:
الرؤية الكونية الفلسفية العقلية ٩١
الرؤية الكونية الفلسفية النسبية ٩٣
الرؤية الكونية الفلسفية البديهية الإيجابية ٩٤
سلبيات الرؤية الكونية الفلسفية العقلية البديهية ٩٦
حقائق موضوعية ٩٧
الشرائط اللازمة لتحصيل الفلسفة ١٠٠

فوائد فلسفية ١٠١

الباب الثاني

الفصل الأول

الرؤية الكونية الدينية ١٠٧

الرؤية الكونية الدينية غير الصحيحة ١٠٨

الرؤية الكونية الدينية الصحيحة المكتملة ١١٠

الرؤية الكونية الدينية المكتملة غير اللاكتمالية ١١٣

الرؤية الكونية الدينية المكتملة الاكتمالية ١١٤

الفصل الثاني

الرؤية الكونية العرفانية ١١٩

المنهج الإشراقي والعرفان ١٢١

أقسام الرؤية العرفانية ١٢٤

الفصل الثالث

الرؤية الكونية العرفانية السليمة ١٣٣

العبادة والعبودية ١٧٦

العبادة مصدر السعادة ١٧٧

العبادة نهج الأنبياء ١٨٢

إزالة الحجب ١٨٥

الحجب الظلمائيه ١٨٦

الحجب النورانيه ١٨٧

الفصل الخامس

حبل الله ١٩٣

كتاب الله ١٩٤

أبعاد الكتاب ٢٠١

أقسام التوحيد ٢٠٣

تقسيم الكتاب ٢٠٥

الإنسان الكامل ٢٠٧

المرآة ٢٠٨

كلمة آية ٢٠٩

ومن أسماء النبي (ص) ٢١١

الخاتمة ٢١٧

تعليق على الكتاب ٢١٩

المراجع والمصادر ٢٢٥